

المقدمة

الحمد لله رب العــالمين، والصــلاة والســلام على نبيه الصــادق الأمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين... وبعد:

فهذا كتاب في علم التوحيد، وقد راعيت فيه الاختصار مع سـهولة العبـارة، وقد اقتبسـته من مصـادر كثـيرة من كتب أئمتنا الأعلام، ولا سيما كتب شـيخ الإسـلام ابن تيميـة، وكتب العلامة ابن القيم، وكتب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه من أئمة هـذه الدعوة المباركة، ومما لا شك فيه أن علم العقيـدة الإسـلامية هو العلم الأساسي الذي تجدر العناية به تعلمًا وتعليمًا وعملًا بموجبه؛ لتكون الأعمال صحيحة مقبولة عند الله نافعة للعاملين، خصوصًـا وأننا في زمان كثرت فيه التيارات المنحرفـة؛ تيـار الإلحـاد، وتيـار التصوف والرهبنـة، وتيـار القبورية الوثنيـة، وتيـار البـدع المخالفة للهدي النبوي، وكلها تيـارات خطـيرة ما لم يكن المسـلم مسـلحًا بسلاح العقيدة الصحيحة المرتكزة على الكتاب والســنة وما عليه سلف الأمة، فإنه حري أن تجرفه تلك التيارات المضلة؛ وهذا مما يستدعي العناية التامة بتعليم العقيدة الصحيحة لأبنـاء المسـلمين من مصادرها الأصيلة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.



الباب الأول

مدخل لدراسة العقيدة

ويتكون من الفصول التالية:

الفصـلُ الأوَّلُ: معـنى العقيـدة، وبيـان أهميتهـا؛ باعتبارها أساسًـا يقوم عليه بناء الدين.

الفصل الثَّاني: مصــادر العقيــدة الصــحيحة، ومنهج السَّــلف في تلقيها.

الفصل الثَّالثُ: الانحرافُ عن العقيدة، وسبُلُ التوقِّي منه.

الفصل الأول

في بيان العقيدة وبيـان أهميتها باعتبارها أساسًـا يقـوم عليه بنـاء الدين

العقيدة لغة:

مأخوذة من العقد وهو ربط الشيء، واعتقدت كـذا: عقـدت عليه القلب والضمير. والعقيدة: ما يدين به الإنسـان، يقـال: له عقيـدة حسنة، أي: سالمةٌ من الشك. والعقيـدةُ عمل قلـبي، وهي إيمـانُ القلب بالشيء وتصديقه به.

والعقيدةُ شرعًا:

هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليـوم الآخـر، و الإيمـان بالقدر خيره وشره، وتُسمَّى هذا أركانُ الإيمان.

والشريعة تنقسم إلى قسمين: اعتقاديات وعمليات:

فالاعتقاديات: هي التي لا تتعلق بكيفية العمل، مثل اعتقاد ربوبية الله ووجـوب عبادتـه، واعتقـاد بقية أركـان الإيمـان المـذكورة، وتُسمَّى أصلية.

والعمليـــات:هي ما يتعلق بكيفية العمل مثل الصـــلاة والزكـــاة والصوم وسائر الأحكام العملية، وتسـمى فرعيـة؛ لأنها تبـنى على تلك صحة وفسادًا. [شرح العقيدة السـفارينية (1 / ـ 4). وقولـه: (على تلك) أي: على الاعتقاديات.]

فالعقيدةُ الصَّحيحةُ هي الأسـاسُ الـذي يقـوم عليه الـدين وتَصـحُّ معه الأعمال، كما قال تعالى: {فمن كان يرجوا لقـاء ربه فليعمل عملًا صـالحًا ولا يشـرك بعبـادة ربه أحـدًا (110) }. [الكهـف: 110.]

وقال تعالى: {ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين (65) }. [الزمر: 65.]

وقـال تعـالى: {فاعبد الله مخلصًـا له الـدين (2) ألا لله الـدين الخالص }. [الزمر: 2، 3.]

فدلّت هذه الآيات الكريمة، وما جـاء بمعناهـا، وهو كثـير، على أن الأعمـال لا تُقبـلُ إلا إذا كـانت خالصة من الشـرك، ومن ثَمَّ كـان اهتمام الرسل ـ صـلواتُ الله وسـلامه عليهم ـ بإصـلاح العقيـدة أولًا، فأول ما يدعون أقوامهم إلى عبادة الله وحده، وتـرك عبـادة ما سواه، كما قال تعالى:

{ ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطـاغوت }. [النحل: 36.]

و كلُّ رسول يقول أول ما يخاطب قومه:



{ اعبـدوا الله ما لكم من إله غـيره} [الأعـراف: 59، 65، 73، 85.] قالها نوح وهود و صالح وشعيب، و سائر الأنبياء لقومهم.
وقد بقي النـبي صـلى الله عليه وسـلم في مكة بعد البعثة ثلاثـةَ عشـرَ عامًا يـدعو النـاس إلى التوحيـد، و إصـلاح العقيـدة؛ لأنها الأسـاسُ الـذي يقـوم عليه بنـاءُ الـدين. و قد احتـذى الـدعاة والمصـلحون في كل زمـان حـذو الأنبيـاء والمرسـلين، فكـانوا يبدءون بالدعوة إلى التوحيـد، و إصـلاح العقيـدة، ثم يتجهـون بعد ذلك إلى الأمر ببقية أوامر الدين.

الفصل الثاني

في بيان مصادر العقيدة ومنهج السلف في تلقيها

العقيدة توقيفية؛ فلا تثبت إلا بـدليل من الشـارع، ولا مسـرح فيها للرأي والاجتهـاد، و من ثَمَّ فـإن مصـادرها مقصـورة على ما جـاء في الكتاب والسنة؛ لأنه لا أحـدَ أعلمُ بالله وما يجب له و ما يـنزه عنه من اللــه، ولا أحد بعد الله أعلمُ بالله من رسـول الله صـلى الله عليه وسلم، ولهذا كان منهج السـلف الصـالح ومن تبعهم في تلقِّي العقيدة مقصورًا على الكتاب والسنة.

فما دل عليه الكتــاب والســنة في حق الله تعــالى آمنــوا بــه، واعتقــدوه و عملــوا بــه. و ما لم يــدل عليه كتــاب الله ولا ســنة رســوله نفَــوْهُ عن الله تعــالى ورفضــوه؛ ولهــذا لم يحصل بينهم اختلاف في الاعتقاد، بل كانت عقيدتهم واحدة، وكـانت جمـاعتهم واحـدة؛ لأن الله تكفّل لمن تمسك بكتابه وسـنة رسـوله باجتمـاع الكلمــة، والصــواب في المعتقد واتحــاد المنهج، قــال تعــالى: {واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا }. [آل عمران: 103.]

وقال تعالى: {فإما يأتينكم مني هدي فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى (123) }. [طه: 23.]

ولذلك سُـمُّوا بالفرقة الناجيـة؛ لأن النـبي صـلى الله عليه وسـلم شــهد لهم بالنجــاة حين أخــبر بــافتراق الأمة إلى ثلاث وســبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، ولما سئل عن هذه الواحدة قــال: " هي من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصـحابي ". [الحـديث رواه الإمام أحمد.]

وقد وقع مصداق ما أخبر به صـلى الله عليه وسـلم، فعنـدما بـنى بعض الناس عقيدتهم على غير الكتــاب والســنة، من علم الكلام، وقواعد المنطق الموروثَيْن عن فلاسفة اليونان؛ حصل الانحــرافُ والتفـــرق في الاعتقـــاد مما نتج عنه اختلافُ الكلمـــة، وتفـــرُّقُ الجماعة، وتصدع بناء المجتمع الإسلامي.

الفصل الثالث

في بيان الانحراف عن العقيدة وسبل التوقي منه

الانحــراف عن العقيــدة الصـحيحة مهلكة وضـياع؛ لأن العقيــدة الصحيحة هي الدافع القوي إلى العمل النـافع، والفـرد بلا عقيـدة صحيحة، يكون فريسة للأوهام والشكوك التي ربما تـتراكم عليـه، فتحجب عنه الرؤية الصحيحة لدروب الحياة السعيدة؛ حتى تضيق عليه حياته ثم يحـاول التخلص من هـذا الضـيق بإنهـاء حياته ولو بالانتحار، كما هو الواقع من كثير من الأفـراد الـذين فقـدوا هداية العقيدة الصحيحة. و المجتمع الذي لا تسـوده عقيـدة صـحيحة هو مجتمع بهيمي يفقد كل مقومات الحيادة السعيدة؛ وإن كان يملك الكثـير من مقومـات الحيـاة المادية الـتي كثـيرًا ما تقـوده إلى الــدمار، كما هو مشــاهد في المجتمعــات الكــافرة؛ لأن هــذه الموقمــات المادية تحتــاج إلى توجيه وترشــيد؛ للاســفتادة من خصائصها ومنافعها، و لا موجه لها سوى العقيـدة الصـحيحة؛ قـال تعــالى: {يأيها الرسل كلــوا من الطيبــات واعملــوا صــالحًا }. [المؤمنون: 51.]

وقـال تعـالى: {* ولقد ءاتينا منا فضلا يا جبـال أوبي معه والطـير وألنا له الحديد (10) أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملـوا صالحًا إني بما تعملون بصير (11) ولسليمان الـريح غـدوها شـهر ورواحها شـــره وأســلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السـعير (12) يعملون له ما يشـاء من محـاريب وتماثيل وجفـان كـالجواب وقدور راسيات اعملوا ءال داود شكرًا وقليل من عبادي الشــكور (13) }. [سبأ: 10 ـ 13.]

فقـوة العقيـدة يجب أن لا تنفك عن القـوة الماديـة؛ فـإن انفكت عنها بالانحراف إلى العقائد الباطلة، صارت القـوة المادية وسـيلة دمارٍ وانحـدار؛ كما هو المشـاهد اليـومَ في الـدول الكـافرة الـتي تملكُ مادة، ولا تملك عقيدة صحيحة.

والانحراف عن العقيـدة الصـحيحة له أسـباب تجب معرفتهـا، من أهمها:

1 ـ الجهل بالعقيــدة الصــحيحة؛ بســبب الإعــراض عن تعلمها وتعليمها، أو قلة الاهتمـام والعناية بهـا؛ حـتى ينشأ جيـلٌ لا يعـرفُ تلك العقيدة، ولا يعـرف ما يخالفها ويضـادها؛ فيعتقد الحق بـاطلًا، والباطل حقًا، كما قالَ عمرُ بنُ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: " إنما تُنقضُ عُـرى الإسـلام عـروةً إذا نشـأ في الإسـلام من لا يعَـرفُ الجاهلية ".

2 ـ التعصُّــبُ لما عليه الآبــاء والأجــداد، و التمسك به وإن كــان باطلًا، وترك ما خالفه وإن كـان حقًـا؛ كما قـال الله تعـالى: {وإذا قيل لهم اتبعــوا ما أنــزل الله قــالوا بل نتبع ما ألفينا عليه ءاباءنا أولو كان ءاباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون }. [البقرة: 170].
3 ـ التقليدُ الأعمى بأخذ أقوال الناس في العقيدة من غير معرفة دليلها، ومعرفة مدى صحتها، كما هو الواقــعُ من الفــرقِ المخالفة من جهمية ومعتزلة، و أشاعرة وصوفية، وغيرهم، حيثُ قلدوا من قبلهم من أئمة الضلال؛ فضلوا وانحرفوا عن الاعتقاد الصحيح.
4 ـ الغلو في الأوليـاء والصـالحين، ورفعهم فـوق مـنزلتهم، بحيث يعتقد فيهم ما لا يقــدر عليه إلا الله من جلب النفــع، ودفع الضــر، واتخاذهم وسـائط بين الله وبين خلقه في قضـاء الحــوائج وإجابة الدعاء؛ حتى يؤول الأمر إلى عبادتهم من دون الله، والتقــرب إلى أضرحتهم بالذبائح والنذور، والدعاء والاستغاثة وطلب المــدد، كما حصل من قــوم نــوح في حق الصــالحين حين قــالوا: {لا تــذرن ءالهتكم و لا تــذرن ودًا ولا ســواعًا ولا يغــوث ويعــوق ونســرا }. [نوح: 23.]
وكام هُوَ الحاصلُ من عبَّاد القُبور اليوم في كثير من الأمصار.
5 ـ الغفلة عن تــدبر آيــات الله الكونيــة، وآيــات الله القرآنيــة، والانبهار بمعطيات الحضارة الماديــة؛ حــتى ظنــوا أنها من مقــدور البشر وحده؛ فصاروا يُعظِّمون البشر، ويضيفون هــذه المعطيــات إلى مجهوده واختراعه وحده، كما قال قارون من قبلُ: {قال إنما أوتيته على علم عنــدي} [القصــص: 78.] وكما يقــول الإنســان {هــذا لي} [فصــلت: 50ـ]، {إنما أوتيته على علم }. [الزمــر: 49.]
ولم يتفكروا وينظروا في عظمة من أوجد هذه الكائنات، وأودعها هــذه الخصــائص البــاهرة، وأوجد البشر و أعطــاهُ المقــدرةَ على استخراج هذه الخصائص، والانتفاع بها {والله خلقكم وما تعملون (96) }. [الصافات: 96.]
{ أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء }. [الأعراف: 185.]
{ الله الــذي خلق الســماوات والأرض وأنــزل من الســماء مــاء فــأخرج به من الثمــرات رزقا لكم وســخر لكم الفلك لتجــري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار (32) وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار (33) وءاتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها }. [إبراهيم: 32 ـ 34.]

6 ـ أصبح البيت في الغالب خاليًا من التوجيه السليم؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " [أخرجه الشيخان.] فالأبوان لهما دور كبير في تقويم اتجاه الطفل.

7 ـ إحجامُ وسائل التعليم والإعلام في غالب العالم الإسلامي عن أداء مهمتهما، فقد أصبحت مناهج التعليم في الغالب لا تولي جانب الدين اهتمامًا كبيرًا، أو لا تهتم به أصلًا، واصبحت وسائلُ الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة في الغالب أداة تدمير وانحراف، أو تعني بأشياء مادية وترفيهية، ولا تهتم بما يقوم الأخلاق، ويزرع العقيدة الصحيحة، ويقاوم التيارات المنحرفة، حتى ينشأ جيلٌ أعزلُ أمام جيوش الإلحاد لا يدان له بمقاومتها.

وسبل التوقي من هذا الانحراف تتلخص فيما يلي:

1 ـ الرجوع إلى كتاب الله عز وجل، وإلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم لتلقي الاعتقاد الصحيح منهما، كما كان السلف الصالح يستمدون عقيدتهم منهما، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، مع الاطلاع على عقائد الفرق المنحرفة، ومعرفة شُبههم للرد عليها والتحذيير منها؛ لأن من لا يعرف الشر يوشك أن يقع فيه.

2 ـ العناية بتدريس العقيدة الصحيحة ـ عقييدة السلف الصالح ـ في مختلف المراحل الدراسية، وإعطاؤها الحصص الكافية من المنهج، والاهتمام البالغ في تدقيق الامتحانات في هذه المادة.

3 ـ أ، تقرر دراسة الكتب السلفية الصافية، ويبتعد عن كتب الفرق المنحرفة، كالصوفية والمبتدعة، والجهمية والمعتزلة، والأشاعرة والمبتدعة، والجهمية والمعتزلة، والأشاعرة والماتوريدية، وغيرهم إلا من باب معرفتها لرد ما فيها من الباطل والتحذير منا.

4 ـ قيام دعاة مصلحين يجددون للناس عقيدة السلف، ويردون ضلالات المنحرفين عنها.



الباب الثاني

في بيان معنى التوحيد وأنواعه

التوحيد: هو إفراد الله بالخلق والتدبر، وإخلاص العبادة له، وتــرك عبادة ما سـواه، وإثبـات ما لَـهُ من الأسـماء الحسـنى، والصـفات العليا، وتنزيهه عن النقص والعيب؛ فهو بهذا التعريف يشملُ أنواع التوحيد الثلاثة، وبيانها كتالي:

1 ـ توحيد الربوبية

ويتضمن الفصول التالية:

الفصل الأول: في بيـان معـنى توحيد الربوبيـة، وفطريته وإقـرار المشركين به.

الفصل الثاني: في بيان مفهوم كلمة الـرب في القـرآن والسـنة، وتصورات الأمم الضالّة في باب الربوبية، والرد عليها.

الفصل الثالث: في بيان خضوع الكون في الانقياد والطاعة لله.

الفصل الرابع: في بيان منهج القـرآن في إثبـاتِ وحدانية الله في الخلق والرزق وغير ذلك.

الفصل الخــــامس: في بيــــان اســــتلزام توحيد الربوبية لتوحيد الألوهية.

الفصل الأول

في بيان معنى توحيد الربوبية وإقرار المشركين به

التوحيد: بمعناه العام هو اعتقادُ تفرُّدِ الله تعالى بالربوبية، وإخلاص العبادة له، وإثبات ما له من الأسماء والصفات، فهو ثلاثة أنواع:

توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وكل نوع له معنى لابد من بيانه؛ ليتحدد الفرق بين هذه الأنواع:

1 ـ فتوحيد الربوبية:

هو إفرادُ الله تعالى بأفعاله؛ بأن يُعتقَدَ أنه وحده الخالق لجميع المخلوقات: {الله خالق كل شيء }. [الزمر: 62.]

وأنه الرازق لجميع الدواب والآدميين وغيرهم: {* وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها }. [هود: 6.]

و أنه مالكُ الملك، والمدبرُ لشئون العالم كله؛ يُولِّي ويعزل، ويُعزُّ ويُذل، قادرٌ على كل شيء، يُصَرِّفُ الليل والنهار، ويُحيي ويُميت: {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير (26) تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب (27) }. [آل عمران: 26، 27.]

وقد نفى الله سبحانه أن يكونَ له شريكٌ في الملك أو معين، كما نفى سُبحانه أن يكونَ له شريكٌ في الخلق والرزق، قال تعالى: {هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه }. [لقمان: 11.]

وقال تعالى: {أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه }. [الملك: 21.]

كما أعلن انفراده بالربوبية على جميع خلقه فقال: {الحمد لله رب العالمين (2)} الفاتحة: 2ـ]، وقال: {إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثًا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق و الأمر تبارك الله رب العالمين (54) }. [الأعراف: 54.]

وقد فَطَرَ الله جميعَ الخلق على الإقرار بربوبيته؛ حتى إن المشركين الذين جعلوا له شريكًا في العبادة؛ يقرون بتفرده بالربوبية، كما قال تعالى: {قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم (86) سيقولون لله أفلا تتقون (87) قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون (88)



سـيقولون لله قل فـأنى تسـحرون (89) }. [المؤمنـون: 86 ـ 89.]

فهذا التوحيـدُ لم يـذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بـني آدم؛ بل القلوب مفطـورة على الإقـرار بـه؛ أعظم من كونها مفطـورة على الإقرار بغيره من الموجـودات؛ كما قـالت الرسل فيما حكي الله عنهم: {* قـالت رسـلهم أفي الله شك فـاطر ا لسـماوات والأرض }. [إبراهيم: 10.]

وأشهر منن عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الرب فرعون، وقد كان مستيقنًا به في الباطن كما قال له موسـى: {قـال لقد علمت ما أنـزل هـؤلاء إلا رب السـماوات والأرض بصـائر }. [الإسـراء: 102.]

وقـال عنه وعن قومـه: {وجحـدوا بها واسـتيقنتها أنفسـهم ظلما وعلوًا }. [النمل: 14.]

وكـذلك من ينكر الـرب اليـوم من الشـيوعيين، إنما ينكرونه في الظاهر مكـابرة؛ وإلا فهم في البـاطن لابد أن يعـترفوا أنه ما من موجود إلا وله موجد، وما من مخلوق إلا وله خالق وما من أثر إلا وله مؤثر، قال تعالى: {أم خلقوا من غير شـيء أم هم الخـالقون (35) أم خلقـوا السـماوات والأرض بل لا يوقنـون (36)ـ }. [الطور: 35 ـ 36.]

تأمل العـالم كلـه، علويه وسـفليه، بجميع أجزائـه؛ تجـده شـاهدًا بإثبات صانعه وفاطره ومليكه. فإنكار صانعه وجحـده في العقـول والفطـر؛ بمنزلة إنكـار العلم وجحـده، لا فـرق بينهما [لأن العلم الصحيح يثبت وجود الخالق.]، و ما تبجح به الشـيوعية اليـوم من إنكـار وجـود الـرب؛ إنما هو من بـاب المكـابرة، ومصـادرة نتـائج العقـول والأفكـار الصـحيحة، ومن كـان بهـذه المثابـة، فقد ألغى عقله ودعا الناس للسخرية منه.

قال الشاعر:

كيف يعصي الإله	ويجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية	تدل على أنه واحد

الفصلُ الثاني

مفهومُ كلمةِ الربِّ في القرآن والسنة وتصورات الأمم الضالة

1 ـ مفهوم كلمة الرب في الكتاب والسنة:

الرب في الأصل: مصدرُ ربَّ يرب، بمعنى: نشأ الشيء من حال إلى حال إلى حال التمام، يقالُ: ربه ورباه ورببه، فلفظ (رب) مصدر مستعار للفاعل، ولا يقال: (الرب) بالإطلاق؛ إلا لله تعالى المتكفل بما يصلح الموجودات، نحو قوله: {رب العالمين (2)} [الفاتحة: 2ـ]، {ربكم ورب ءابائكم الأولين (26) }. [الشعراء: 26.]

ولا يقال لغيره إلا مضافا محدودًا، كما يقال: رب الدار؛ وربُّ الفرس. يعني صاحبُها، ومنه قولُه تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: {اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه} [يوسف: 42.] على قول في تفسير الآية.

وقوله تعالى: {قال ارجع إلى ربك }. [يوسف: 50.]

وقوله تعالى: {أما أحدكما فيسقي ربه خمرًا }. [يوسف: 41.]

وقال صلى الله عليه وسلم في ضالة الإبل: " حتى يجدها ربها ". [من حديث متفق عليه.]

فتبين بهذا: أن الرب يطلق على الله معرفًا ومضافًا، فيقال: الرب، أو رب العالمين، أو رب الناس، ولا تُطلق كلمة الربِّ على غير الله إلا مضافة، مثل: رب الدار، ورب المنزل، ورب الإبل.

ومعنى (رب العالمين) أي: خالقهم ومالكهم، ومصلحهم ومربيهم بنعمه، وبإرسال رسله، وإنزال كتبه، ومجازيهم على أعمالهم. قال العلامة ابن القيم رحمه الله: (فإنَّ الربوبية تقتضي أمر العباد ونهيهم، وجزاء مُحسنهم بإحسانه، ومُسيئهم بإساءته). [انظر (1 / 8) من مدارج السالكين.]

هذه حقيقة الربوبية.

2 ـ مفهوم كلمة الرب في تصورات الأمم الضالة:

خلق الله الخلق مفطورين على التوحيد، ومعرفة الرب الخالق سبحانه، كما قال الله تعالى: {فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله }. [الروم: 30.]

وقال تعالى: {و إذ أخذ ربك من بني ءادم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا }. [الأعراف: 172.]

فالإقرار بربوبية الله والتوجه إليه أمر فطري، والشرك حادث طارئ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: " كلُ مولود يُولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصرانه أو يُمجِّسانه " [رواه

الشـــــيخان.]، فلو خُلِّيَ العبد وفطرته لاتجه إلى التوحيد وقَبِل دعوة الرسـل؛ الـذي جـاءت به الرسـل، ونـزلت به الكتب، ودلت عليه الآيات الكونيـة، ولكن التربية المنحرفة والبيئة الملحـدة هما اللتـان تغـيران اتجـاه المولـود، ومن ثَمَّ يقلد الأولاد آبـاءهم في الضلالة والانحراف.

يقولُ الله تعـالى في الحـديث القدسـي: " خلقت عبـادي حنفـاء، فاجتـالتهم الشـياطين " [رواه أحمد ومسـلم.] أي: صَـرَفَتْهُم إلى عبادة الأصنام، واتخاذها أربابًا من دون اللـه؛ فوقعـوا في الضـلال والضــياع، والتفــرق والاختلاف؛ كل يتخذ له ربًا يعبــده غــير رب الآخر؛ لأنهم لما تركوا الرب الحق، ابتُلُوا باتخاذ الأربـاب الباطلـة، كما قــال تعــالى: {فــذلكم الله ربكم الحق فمــاذا بعد الحق إلا الضلال} [يونس: 32.] والضـلال ليس له حد ولا نهايـة، وهو لازم لكل من أعــرض عن ربه الحــق، قــال الله تعــالى: {ءأربــاب متفرقون خير أم الله الواحد القهار (39) ما تعبــدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وءابـاؤكم ما أنـزل الله بها من سـلطان }. [يوسف: 39، 40.]

والشركُ في الربوبية باعتبار إثبات خالقين متماثلين في الصـفات والأفعال ممتنـع، وإنما ذهب بعض المشـركين إلى أن معبـوداتهم تملك بعض التصرفات في الكـون، وقد تلاعب بهم الشـيطان في عبـادة هـذه المعبـودات، فتلاعَبَ بكل قـوم على قـدر عقـولهم، فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى؛ الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم، كقـوم نـوح، وطائفـةٌ اتخـذت الأصـنام على صورة الكواكب؛ التي زعموا أنها تـؤثر على العـالم، فجعلـوا لها بيوتًا وسدنة.

واختلفوا في عبـادتهم لهـذه الكـواكب: فمنهم من عبد الشـمس، ومنهم من عبد القمــر، ومنهم من يعبــدُ غيرهما بمن الكـــواكب الأخـرى؛ حـتى بنـوا لها هياكـل، لكل كـوكب منها هيكل يخصـه، ومنهم من يعبدُ النـار، وهم المجـوس، ومنهم من يعبد البقـر، كما في الهنـــد، ومنهم من يعبد الملائكـــة، ومنهم من يعبد الأشـــجار والأحجار، ومنهم من يعبدُ القبور والأضـرحة، وكل هـذا بسـبب أن هؤلاء تصوروا في هذه الأشياء شيئًا من خصائص الربوبية.

فمنهم من يـزعم أن هـذه الأصـنام تمثل أشـياء غائبـة، قـال ابن القيم: (وضع الصنم إنما كان في الأصل على شكل معبود غـائب، فجعلـوا الصـنم على شـكله وهيأته وصـورته؛ ليكـون نائبًا منابـه، وقائمًا مقامه. وإلا فمن المعلوم أن عاقلًا لا ينحت خشبة أو حجرًا



بيـده، ثم يعتقد أنه إلهه ومعبـوده...) انتهى. [إغاثة اللهفـان (2 / 220).]

كما أن عُبَّادَ القبـور قـديمًا وحـديثًا، يزعمـون أن هـؤلاء الأمـوات يشــفعون لهم، ويتوســطون لهم عند الله في قضــاء حــوائجهم ويقولــون: {ما نعبــدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى} [الزمــر: 3.] {ويعبدون من دون الله ما لا يضـرهم ولا ينفعهم ويقولـون هـؤلاء شفعاؤنا عند الله }. [يونس: 18.]

كما أن بعض مشركي العـرب والنصـارى تصـوروا في معبـوداتهم أنها ولد الله، فمشركو العرب عبدوا الملائكة على أنها بنات اللـه، والنصارى عبدوا المسيح ـ عليه السلام ـ على أنه ابن الله.

3 ـ الرد على هذه التصورات الباطلة:

قد رد الله على هذه التصورات الباطلة جميعًا بما يأتي:

أ ـ رد على عبـدة الأصـنام بقولـه: {أفـرءيتم اللات والعـزى (19) ومناة الثالثة الآخرى (20) }. [يونس: 18.]

ومعـنى الآية كما قـال القرطـبي: أفـرأيتم هـذه الآلهة ! أنفعت أو ضـرت؛ حـتى تكـون شـركاء لله تعـالى ؟ وهل دفعت عن نفسـها حينما حطمها رسول الله صـلى الله عليه وسـلم وأصـحابه رضي الله عنهم وهدموها.

وقال تعالى: {واتل عليهم نبأ إبراهيم (69) إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون (70) قالوا نعبد أصنامًا فنظل لها عكـافين (71) قـال هل يسمعونكم إذ تدعون (72) أو ينفعونكم أو يضرون (73) قالوا بل وجدنا ءاباءنا كذلك يفعلون (74) }. [الشعراء: 69 ـ 74.]

فقد وافقـوا على أنَّ هـذه الأصـنام لا تسـمعُ الـدعاءَ ولا تنفـعُ ولا تضر، وإنَّما عبدوها تقليدًا لآبائهم، والتقليد حجة باطلة.

ب ـــ ورد على من عبد الكـــواكب والشـــمس والقمر بقولـــه: {والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره} [الأعراف: 54ـ]، وبقوله: {ومن ءاياته الليل والنهـار والشـمس والقمر لا تسـجدوا للشــمس ولا للقمر واســجدوا لله الــذي خلقهن إن كنتم إيــاه تعبدون (37) }. [فصلت: 37.]

جـ ـ ورد على من عبد الملائكة والمسيح ــ عليهم السـلام ــ على أنهم ولد الله ـ بقوله تعالى: {ما اتخذ الله من ولـد} [المؤمنـون: 91ـ]، وبقوله: {أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة} [الأنعام: 101.]، وبقوله: {لم يلد ولم يولد (3) ولم يكن له كفوًا أحد (4) }. [الإخلاص: 3، 4.]

الفصل الثالث

الكون وفطرته في الخضوع والطاعة لله

إن جميع الكون بسمائه وأرضه وأفلاكه وكواكبه، ودوابه وشجره ومدره وبره وبحره، وملائكته وجنه وإنسه؛ كله خاضع لله، مطيع لأمره الكوني، قال تعالى: {وله أسلم من في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا} [آل عمران: 83ـ]، وقال تعالى: {بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون (116)} [البقرة: 116.ـ]، {ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون (49)} [النحل: 49ـ]، {ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس} [الحج: 18.] {ولله يسجد منن في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا وظلالهم بالغدو والأصال }. [الرعد: 15.]

فكُلُّ هذه الكائنات والعوالم؛ مُنقادة لله خاضعة لسلطانه؛ تجري وفق إرداته وطوع أمره، لا يستعصي عليه منها شي؛ تقوم بوظائفها، وتؤدي نتائجها بنظام دقيق، وتنزه خالقها عن النقص والعجز والعيب، قال تعالى: {تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم }. [الإسراء: 44.]

فهذه المخلوقات صامتها وناطقها، وحيها وميتها، كلها مُطيعةٌ لله مُنقادة لأمره الكوني، وكُلُها تنزه الله عن النقائص والعيوب بلسان الحال، ولسان المقال. فكلما تدبّر العاقل هذه المخلوقات؛ علم أنها خُلقت بالحق وللحق، وأنها مسخرات ليس لها تدبير ولا استعصاء عن أمر مدبرها؛ فالجميع مُقِرُّون بالخالق بفطرتهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ: (وهم خاضعون مُستسلمون، قانتون مضطرون، من وجوه:

منها: علمهم بحاجتهم وضرورتهم إليه.

ومنها: خضوعُهُم واستسلامهم لما يجري عليهم من أقداره ومشيئته.

ومنها: دعاؤهم إياهُ عندَ الاضطرار.

والمؤمن يخضع لأمر به طوعًا؛ وكذلك لما يقدره عليه من المصائب، فإنه يَفعلُ عندها ما أمر به من الصبر وغيره طوعًا؛ فهو مسلم لله طوعًا، خاضع له طوعًا [مجموع الفتاوى (1 / 45).]. والكافرُ يخضع لأمر ربه الكوني، وسجود الكائنات المقصود به الخضوعُ، وسجود كل شيء بحسبه، سجود يناسبه



ويتضـمن الخضـوع للـرب، وتسـبيح كل شـيء بحسـبه حقيقة لا مجازًا).

وقـال شـيخ الإسـلام ابنُ تيميـةَ ــ رحمه الله ــ على قوله تعـالى: {أفغـير دين الله يبغـون وله أسـلم من في السـماوات والأرض طوعًا وكرهًا وإليه ترجعون (83) }. [آل عمران: 83.]

قال: (فذكر سبحانه إسلام الكائنات طوعًا وكرهًا؛ لأن المخلوقات جميعها متعبـدة له التعبد التـام؛ سـوا أقر المقر بـذلك أو أنكـره؛ وهم مدينون له مـدبرون؛ فهم مسـلمون له طوعًا وكرهًـا، وليس لأحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدره وقضاه، ولا حول ولا قوة إلا به، و هو رب العالمين ومليكهم، يصرفهم كيف يشاء، وهو خـالقهم كلهم، وبـارئهم ومصـورهم، وكل ما سـواه فهو مربـوب مصنوع، مفطـور فقـير محتـاج معبد مقهـور؛ وهو سـبحانه الواحد القهار الخالق البارئ المصور). [مجموع الفتاوى (10 / 200).]

الفصل الرابع

في بيان منهج القرآن في إثبات وجود الخالق ووحدانيته

منهجُ القرآن في إثبات وجود الخالق ووحدانيتـه؛ هو المنهج الـذي يتمشى مع الفطر المسـتقيمة، والعقـول السـليمة، وذلك بإقامة البراهين الصحيحة، التي تقتنع بها العقـول، وتسـلم بها الخصـوم، ومن ذلك:

1 ـ من المعلوم بالضرورة أن الحادث لا بد له من محدث:

هذه قضية ضرورية معلومة بالفطرة؛ حتى للصبيان؛ فـإن الصـبي لو ضربه ضـارب، وهو غافل لا يبصـره، لقـال: من ضـربني ؟ فلو قيل له: لم يضربك أحد؛ لم يقبل عقله أن تكـون الضـربة حـدثت من غير محدث؛ فإذا قيل: فلان ضربك، بكى حتى يُضرب ضاربه؛ ولهذا قال تعالى:

{ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون (35) }. [الطور: 35.]

وهذا تقسيم حاصر، ذكره الله بصيغة استفهام إنكـاري؛ ليـبين أن هذه المقـدمات معلومة بالضـرورة، لا يمكن جحـدها، يقـول: {أم خلقوا من غير شـيء} أي: من غـير خـالق خلقهم، أم هم خلقـوا أنفسـهم ؟ وكلا الأمـرين باطـل؛ فتعين أن لهم خالقًا خلقهم، وهو الله سبحانه، ليس هناك خالق غيره، قال تعـالى: {هـذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه }. [لقمان: 11.]

{ أروني ماذا خلقوا من الأرض }. [الأحقاف: 4.]

{ أم جعلـوا لله شـركاء خلقـوا كخلقه فتشـابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار (16)} [الرعد: 16.] {إن الـذين تـدعون من دون الله لن يخلقـوا ذبابًا ولو اجتمعـوا له }. [الحج: 73.]

{ والذين يـدعون من دون الله لا يخلقـون شـيئًا وهم يخلقـون }. [النحل: 20.]

{ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون (17) }. [النحل: 17.]

ومع هذا التحـدي المتكـرر لم يـدع أحد أنه خلق شـيئًا، ولا مجـرد دعوى ـ فضلًا عن إثبات ذلك ـ، فتعين أن الله سبحانه هو الخـالق وحده لا شريك له.

2 ـ انتظام أمر العالم كله وإحكامه: أدل دليل على أن مـدبره إله واحد، ورب واحد لا شريك له ولا منازع.

قال تعالى: {ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لـذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض }. [المؤمنون: 91.]

فالإله الحق لا بد أن يكون خالقًا فاعلًا، فلو كـان معه سـبحانه إله آخـر، يُشـاركه في مُلكه ــ تعـالى الله عن ذلك ــ لكـان له خلق وفعل، وحينئذٍ فلا يرضى شركة الإله الآخر معه؛ بل إن قـدر على قهر شريكه وتفرد بالملك والإلهية دونه؛ فعـل. وإن لم يقـدر على ذلـك، افـنرد بنصـيبه في الملك والخلـق؛ كما ينفـرد ملـوك الـدنيا بعضـهم عن بعض بملكـه، فيحصل الانقسـام. فلابد من أحد ثلاثة أمور:

أ ـ إما أن يقهر أحدهما الآخر وينفرد بالملك دونه.

ب ـــ وإما أن ينفـــرد كل واحد منهما عن الآخر بملكه وخلقـــه؛ فيحصل الانقسام.

جـــ ــ وإما أن يكونا تحت ملك واحد يتصـرف فيهما كيف يشـاء؛ فيكون هو الإله الحق وهم عبيده.

وهذا هو الواقع، فإنه لم يحصل في العالم انقسـام ولا خلـل؛ مما يدل على أن مدبره واحد، لا منازع له، وأن مالكه واحد لا شريكه له.

3 ـ تسخير المخلوقات لأداء وظائفها، والقيام بخصائصها:

فليس هنــاك مخلــوق يستعصي ويمتنع عن أداء مهمته في هــذا الكـون، وهـذا ما اسـتدل به موسى ــ عليه السـلام ــ حين سـأله فرعون: {قال فمن ربكما يا موسى (49)} أجاب موسى بجواب شافٍ كافٍ فقال: {ربنا الـذي أعطى كل شـيء خلقه ثم هـدى (50)} [طـه: 49، 50.] أي: ربنا الـذي خلق جميع المخلوقـات، وأعطى كل مخلــوق خلقه اللائق بــه؛ من كــبر الجسم وصـغره وتوسـطه وجميع صـفاته، ثم هـدى كل مخلـوق إلى ما خلقه لـه، وهـــذه الهدايـــةُ هي هداية الدلالة والإلهـــام وهي الهداية الكاملة المشاهدة في جميع المخلوقـات، فكل مخلـوق تجـده يسـعى لما خلق له من المننافع، وفي دفع المضار عنه، حـــتى إن الله أعطى الحيوان البهيم من الإدراك؛ ما يتمكن به من فعل ما ينفعه، ودفع ما يضـره، وما به يـؤدي مهمته في الحيـاة، وهـذا كقوله تعـالى: {الذي أحسن كل شيء خلقه }. [السجدة: 7.]

فالذي خلق جميع المخلوقـات، وأعطاها خلقها الحسن ــ الـذي لا تقترح العقول فـوق حسـنه ــ وهـداها لمصـالحها، هو الـرب على الحقيقـة، فإنكــاره إنكــار لأعظم الأشـياء وجــودًا، وهو مكــابرة ومجــاهرة بالكـذب، فالله أعطى الخلق كل شـيء يحتـاجون إليه في الـدنيا، ثم هـداهم إلى طريق الانتفـاع بـه، ولا شك أنه أعطى كل صـنف شـكله وصـورته المناسـبة لـه، وأعطى كل ذكر وأنـثى الشكل المناسب له من جنسـه، في المناكحة والألفة والاجتمـاع،



وأعطى كل عضو شـكله الملائم للمنفعة المنوطة بـه، وفي هـذا بـراهين قاطعة على أنه جل وعلا رب كل شـيء، وهو المسـتحق للعبادة دون سواه...

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ومما لا شك فيه أن المقصود من إثبات ربوبيته ـ سبحانه ـ لخلقه وانفـراده لـذلك: هو الاسـتدلال به على وجـوب عبادته وحـده لا شريك لـه؛ الـذي هو توحيد الألوهيـة، فلو أن الإنسـان أقر بتوحيد الربوبية ولم يقر بتوحيد الألوهية أو لم يقم به على الوجه الصحيح؛ لم يكن مسلمًا، ولا موحدًا؛ بل يكون كافرًا جاحدًا، وهـذا ما سنتحدث عنه في الفصل التالي ـ إن شاء الله تعالى ـ.

الفصل الخامس

بيان استلزام توحيد الربوبية لتوحيد الألوهية

ومعنى ذلك أن من أقر بتوحيد الربوبية لله، فاعترف بأنه لا خالق ولا رازق ولا مدبر للكون إلا الله ـ عز وجل ـ، لزمه أن يقر بأنه لا يستحق العبادة بجميع أنواعها إلا الله سبحانه، وهذا هو توحيد الألوهية، فإن الألوهية هي العبادة؛ فالإله معناه: المعبود، فلا يُدعى إلا الله، ولا يُستغاثُ إلا به، ولا يُتوَكَّلُ إلا عليه، و لا تذبح القرابين وتُنذر النذورُ ولا تُصرفُ جميعُ أنواع العبادة إلا له؛ فتوحيدُ الربوبية دليلٌ لوجوب توحيد الألوهية؛ ولهذا كثيرًا ما يتحجُّ الله ـ سبحانه ـ على المنكرين لتوحيد الألوهية بما أقروا به من توحيد الربوبية، مثل قوله تعالى: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون (21) الذي جعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون (22) }. [البقرة: 21، 22.]

فأمرهم بتوحيد الألوهية، وهو عبادته، واحتَجَّ عليهم بتوحيد الرُّبوبية الذي هو خلقُ الناس الأولين والآخرين، وخلقُ السماءِ والأرضِ وما فيهما، وتسخير الرياح وإنزالُ المطر، وإنباتُ النبات، وإخراجَ الثمرات التي هي رزق العباد، فلا يليق بهم أن يُشركوا معه غيره؛ ممن يعلمون أنه لم يفعل شيئًا من ذلك، ولا من غيره، فالطريق الفطري لإثبات توحيد الألوهية: الاستدلال عليه بتوحيد الربوبية، فإن الإنسان يتعلق أولًا بمصدر خلقه، ومنشأ نفعه وضره؛ ثم ينتقل بعد ذلك إلى الوسائل التي تقربه إليه، وترضيه عنه، وتوثق الصلة بينه وبينه، فتوحيد الربوبية تبابٌ لتوحيد الألوهية؛ من أجل ذلك احتج الله على المشركين بهذه الطريقة، وأمر رسَوله أن يحتج بها عليهم، فقال تعالى: {قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون (84) سيقولون لله قل أفلا تذكرون (85) قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم (86) سيقولون لله قل أفلا تتقون (87) قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون (88) سيقولون لله قل فأنى تسحرون }. [المؤمنون: 84 ـ 89.]

وقال تعالى: {ذالكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه }. [الأنعام: 102.]

فقد احتج بتفرده بالربوبية على استحقاقه للعبادة، وتوحيد الألوهية: هو الذي خلق الخلق من أجله، قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (56) }. [الذاريات: 56.]



ومعـنى (يعبـدون): يُفـردوني بالعبـادة، ولا يكـون العبـدُ موحـدًا بمجرد اعترافه بتوحيد الربوبية؛ حتى يُقرَّ بتوحيد الألوهيـة، ويقـومَ به، وإلا فإنَّ المشركين كانوا مُقرِّينَ بتوحيدِ الربوبية، ولم يُدخلهم في الإسـلام، وقـاتلهم رسـولُ الله صـلى الله عليه وسـلم، وهمُ يُقـرُّون بـأن الله هو الخـالق الـرازق، المحـيي المميت، كما قـال تعالى: {ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله} [الزخرف: 87.]، {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم (9)} [الزخـرف: 9ـ]، {قل من يـرزقكم من السـماء والأرض أمن يملك السـمع والأبصـار ومن يخـرج الحي من الميت ويخـــرج الميت من الحي ومن يـــدبر الأمر فســـيقولون الله }. [يونس: 31.]

وهذا كثـيرٌ في القـرآن، فمن زعمَ أنَّ التوحيـدَ هُو الإقـرارُ بوجـود الله، أو الإقرار بأن الله هو الخالق المتصرف في الكون، واقتصر على هــذا النــوع؛ لم يكُن عارفًا لحقيقة التوحيد الــذي دعَتْ إليه الرسل؛ لأنَّهُ وقفَ عندَ الملزوم وترك اللازم، أو وقف عند الـدليل وترك المدلول عليه.

ومن خصائص الألوهية: الكمالُ المطلقُ من جميع الوجـوه؛ الـذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبـادة كلها لها وحـــده، والتعظيم والإجلال، والخشـــية والـــدعاء، والرجـــاء، والإنابة، والتوكل والاستغاثة، وغاية الـذلِّ مع غاية الحب، كل ذلك يجب عقلًا وشــرعًا وفطــرةً أن يكــون لله وحــده، ويمتنع عقلًا وشرعًا و فطرةً أن يكون لغيره.

2 ـ توحيد الألوهية

ويتضمن الفصول التالية:

الفصل الأول: في معنى توحيد الألوهية وأنه موضوع دعوة الرسل.

الفصل الثاني: الشهادتان: معناهما ـ أركانهما ـ شروطهما ـ مقتضهما ـ نواقضهما.

الفصل الثالث: في التشريع: التحليل ـ التحريم ـ حق الله.

الفصل الرابع: في العبادة: معناها ـ أنواعها ـ شمولها.

الفصل الخامس: في بيان مفاهيم خاطئة في تحديد العبادة (وذلك كالتقصير في مدلول العبادة أو الغلو فيها).

الفصل السادس: في بيان ركائز العبودية الصحيحة: الحب ـ الخوف ـ الخضوع ـ الرجاء.

الفصل السابع: في بيان شروط قبول العبادة والعمل: وهي الإخلاص ومتابعة الشرع.

الفصل الثامن: في بيان مراتب الدين وهي: الإسلام ـ والإيمان ـ والإحسان. تعريفها وما بينها من عموم وخصوص.

الفصل الأول

في بيان معنى توحيد الألوهية وأنه موضوع دعوة الرسل

توحيد الألوهية: الألوهية هي العبادة:

وتوحيد الألوهية هو: إفراد الله تعالى بأفعال العباد التي يفعلونها على وجه التقرب المشروع، كالدعاء والنذر والنحر، والرجاء والخوف، والتوكل والرغبة والرهبة والإنابة، وهذا النوع من التوحيد هو موضوع دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم، قال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} [النحل: 36ـ]، وقال تعالى: {وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون }. [الأنبياء: 25]

وكلُّ رسول يبدأ دعوته لقومه بالأمر بتوحيد الألوهية، كما قال نوح وهو وصالح وشعيب: {يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله} [الأعراف: 59، 65، 73، 85ـ]، {وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه }. [العنكبوت: 16.]

وأنزل على محمد صلى الله عليه وسلم: {قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصًا له الدين (11) }. [الزمر: 11.]

وقال صلى الله عليه وسلم: " أمرت أن أقاتل الناس؛ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ". [الحديث رواه البخاري ومسلم.]

وأول واجب على المكلف: شهادة أن لا إله إلا الله والعمل بها، قال تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك }. [محمد: 19.]

وأول ما يؤمر به مَنْ يريد الدخول في الإسلام: النطقُ بالشهادتين، فتبين من هذا: أن توحيد الألوهية هو مقصودُ دعوة الرُّسل، وسُمِّي بذلك، لأن الألوهية وصف الله تعالى الدال عليه اسمه تعالى (الله)، فالله: ذو الألوهية، أي المعبود.

ويقال له: توحيد العبادة؛ باعتبار أن العبودية وصفُ العبد، حيثُ إنه يجبُ عليه أن يعبد الله مخلصًا في ذلك؛ لحاجته إلى ربه وفقره إليه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

(واعلم أن فقر العبد إلى الله: أن يعبده لا يُشرك به شيئًا، ليس له نظير فيُقاسُ به؛ لكن يُشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، وبينهما فروق كثيرة؛ فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، وهي لا صلاح لها إلا بإلاهها الله الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره. ولو حصل للعبد لذات وسرور بغير الله، فلا يدوم ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص



إلى شـــخص، وأما إلهه فلا بد له منه في كل حـــال، وكل وقت وأينما كان فهو معه). [مجموع الفتاوى (1 / 24).]

وكـان هـذا النـوع من التوحيد هو موضـوع دعـوة الرسـل؛ لأنه الأسـاسُ الـذي تُبـنى عليه جميع الأعمـال، وبـدون تحققه لا تصـحُ جميعُ الأعمـال: فإنه إذا لم يتحقـق؛ حصل ضـده، وهو الشـركُ، و قد قال الله تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به} [النساء: 48، 116ـ]، وقال تعالى: {ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون (88)} [الأنعـام: 88ـ]، وقـال تعـالى: {لئن أشـركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين }. [الزمر: 65.]

ولأن هذا النوع من التوحيد؛ هو أول الحقـوق الواجبة على العبـد، كما قال تعالى: {* واعبـدوا الله ولا تشـركوا به شـيئًا وبالوالـدين إحسـانًا} [النسـاء: 36.] الآيـة، وقـال تعـالى: {* وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيـاه وبالوالـدين إحسـانًا} [الإسـراء: 23.] الآيـة، وقـال تعالى: {* قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شـيئًا وبالوالدين إحسانًا} [الأنعام: 151 ـ 153.] الآيات.

الفصل الثاني
في بيان معنى الشهادتين وما وقع فيهما من الخطأ
وأركانهما وشروطهما ومقتضاهما ونواقضهما
أولًا: معنى الشهادتين:
معنى شهادة أن لا إله إلا اللـه: الاعتقـاد والإقـرار، أنه لا يسـتحقُ العبادةَ إلا الله، والتزام ذلك والعمل به، (فلا إله) نفي لاسـتحقاق من سوى الله للعبادة، ومعنى هذه الكلمة إجمـالًا: لا معبـود بحق إلا الله. وخبر (لا) يجب تقديره: (بحق) ولا يجوز تقديره بموجـود؛ لأنَّ هذا خلافُ الواقع، فالمعبوداتُ غيرُ الله موجودة بكثرة؛ فيلزم منه أن عبادة هذه الأشياء عبادة لله، وهـذا من أبطل الباطل وهو مـذهب أهل وحـدة الوجـود الـذين هم أكفر أهل الأرض. وقد فُسرتْ هذه الكلمةُ بتفسيرات باطلة منها:
(أ) أن معناه: لا معبـود إلا اللـه. وهـذا باطـل؛ لأن معنـاه: أن كل معبود بحق أو باطل هو الله، كما سبق بيانه قريبًا.
(ب) أن معناهـا: لا خـالق إلا اللـه. وهـذا جـزء من معـنى هـذه الكلمة؛ ولكن ليس هو المقصـود؛ لأنه لا يثبت إلا توحيد الربوبيـة، وهو لا يكفي وهو توحيد المشركين.
(جـ) أن معناها: لا حاكمية إلا للـه، وهـذا أيضًـا جـزء من معناهـا، وليس هو المقصـود؛ لأنه لا يكفي، لأنه لو أفـرد الله بالحاكمية فقط ودعا غير الله أو صرف له شيئًا من العبادة لم يكن موحـدًا، وكل هذه تفاسير باطلة أو ناقصة؛ وإنما نبهنا عليها لأنها توجد في بعض الكتب المتداولة.
والتفسيرُ الصحيح لهذه الكلمة عند السلف والمحققين:
أن يقال: (لا معبود بحق إلا الله) كما سبق.
2 ـ ومعـنى شـهادة أن محمـدًا رسـول اللـه: هو الاعـتراف باطنًا وظاهرًا أنه عبد الله ورسوله إلى النـاس كافـة، والعمل بمقتضى ذلك من طاعته فيما أمـر، وتصـديقه فما أخـبر، واجتنـاب ما نهى عنه وزجر، وألا يُعبدَ الله إلا بما شرع.
ثانيًا: أركان الشهادتين:
أ ـ لا إله إلا الله: لها ركنان هما: النفي والإثبات:
فـالركن الأول: النفي: لا إلـه: يُبطل الشـرك بجميع أنواعـه، و يوجب الكفر بكل ما يعبد من دون الله.
و الركن الثاني: الإثبـات: إلا اللـه: يثبت أنه لا يسـتحق العبـادة إلا الله، ويوجب العمل بذلك. وقد جاء معنى هذين الركنين في كثـير من الآيات، مثل قوله تعالى: {فمن يكفر بالطاغوت ويـؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى }. [البقرة: 256.]



فقولـه: (من يكفر بالطـاغوت) هو معـنى الـركن الأول (لا إلـه) وقوله: (و يؤمن بالله) هو معنى الركن الثاني (إلا الله).
وكذلك قوله عن إبراهيم عليه السلام: {إنني بـراء مما تعبـدون (26) إلا الذي فطرني }. [الزخرف: 26، 27.]
فقوله: (إنني براء) هو معنى النفي في الـركن الأول، وقولـه: (إلا الذي فطرني) هو معنى الإثبات في الركن الثاني.
أركان شهادة أن محمدًا رسول الله: لها ركنـان هما قولنـا: عبـدُه ورسوله، وهما ينفيان الإفراط والتفريط في حقه صـلى الله عليه وسلم فهو عبده ورسـوله، وهو أكمل الخلق في هـاتين الصـفتين الشـريفتين، ومعـنى العبد هنـا: المملـوك العابـد، أي: أنه بشـرٌ مخلـوق مما خلق منه البشـر؛ يجـري عليه ما يجـري عليهم، كما قـال تعـالى: {قل إنما أنا بشر مثلكم} [الكهـف: 110ـ]، وقد وفى صلى الله عليه وسلم العبودية حقها، ومدحه الله بذلك، قال تعـالى: {أليس الله بكـاف عبـده} [الزمـر: 36ـ]، {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتـاب} [الكهـف: 1ـ]، {سـبحان الـذي أسرى بعبده ليلًا من المسجد الحرام }. [الإسراء: 1.]
ومعـنى الرسـول: المبعـوث إلى النـاس كافة بالـدعوة إلى الله بشيرًا ونذيرًا.
وفي الشـهادة له بهـاتين الصـفتين: نفي للإفـراط والتفريط في حقه صلى الله عليه وسـلم، فـإن كثـيرًا ممن يـدعي أنه من أمته أفـرط في حقـه، وغلا فيـه؛ حـتى رفعه فـوق مرتبة العبودية إلى مرتبة العبادة له من دون الله؛ فاستغاث به من دون الله، وطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله؛ من قضاء الحاجات وتفريج الكربـات. والبعض الآخر جحد رسـالته أو فـرط في متابعتـه، واعتمد على الآراء والأقـوال المخالفة لما جـاء بـه؛ وتعسف في تأويل أخبـاره وأحكامه.
ثالثًا: شروط الشهادتين:
أ ـ شروط لا إله إلا الله:
لا بد في شهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شـروط، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها، وهي على سبيل الإجمال:
الأول: العلم المنافي للجهل.
الثاني: اليقين المنافي للشك.
الثالث: القبول المنافي للرد.
الرابع: الانقيادُ المنافي للترك.
الخامس: الإخلاص المنافي للشرك.
السادس: الصدق المنافي للكذب.

السابع: المحبة المنافية لضدها وهو البغضاء.
وأما تفصيلها فكما يلي:
الشرط الأول:
العلم: أي العلم بمعناها المراد منها وما تنفيه وما تثبته، المنافي للجهل بذلك، قال تعالى: {إلا من شهد بالحق وهم يعلمون (86) }. [الزخرف: 86.]
أي: (شهد) بلا إله إلا الله، (وهُم يعلمون) بقلوبهم ما شهدت به ألسنتهم، فلو نطق بها وهو لا يعلم معناها، لم تنفعه؛ لأنه لم يعتقد ما تدل عليه.
الشرط الثاني:
اليقين: بأن يكون قائلها مستيقنًا بما تدل عليه؛ فإن كان شاكًا بما تدل عليه لم تنفعه، قال تعالى: {إنما المؤمنون الذين ءامنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا }. [الحجرات: 15.]
فإن كان مرتابًا كان منافقًا، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " من لقيتَ وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا قلبه فبشره بالجنة " [الحديث في الصحيح.] فمن لم يستيقن بها قلبه، لم يستحق دخولَ الجنة.
الشرط الثالث:
القبول لما اقتضته هذه الكلمة من عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه؛ فمن قالها ولم يقبل ذلك ولم يلتزم به؛ كان من الذين قال الله فيهم: {إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون (35) ويقولون إئنا لتاركوا ءالهتنا لشاعر مجنون (36)ـ }. [الصافات: 35، 36.]
وهذا كحال عباد القبور اليوم؛ فإنهم يقولون: (لا إله إلا الله)، ولا يتركون عبادة القبور؛ فلا يكونون قابلين لمعنى لا إله إلا الله.
الشرط الرابع:
الانقياد لما دلت عليه، قال تعالى: {و من يسلم وجهه إلى الله و هو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى }. [لقمان: 22.]
والعروة الوثقى: لا إله إلا الله؛ ومعنى يسلم وجهه: أي ينقاد لله بالإخلاص له.
الشرط الخامس:
الصدق: وهو أن يقول هذه الكلمة مصدقًا بها قلبُه، فإن قالها بلسانه ولم يصدق بها قلبُه؛ كان منافقًا كاذبًا، قال تعالى: {ومن الناس من يقول ءامنا بالله واليوم الأخر وما هم بمؤمنين (8) يخادعون الله والذين ءامنوا} إلى قوله: {ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون (10) }. [البقرة: 8 ـ 10.]

الشرط السادس:
الإخلاص: وهو تصفية العمل من جميع شوائب الشرك؛ بأن لا يقصد بقولها طمعًا من مطامع الدنيا، ولا رياء ولا سمعة؛ لما في الحديث الصحيح من حديث عتبان قال: " فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله ". [الحديث أخرجه الشيخان.]
الشرط السابع:
المحبة لهذه الكلمة، ولما تدل عليه، ولأهلها العاملين بمقتضاها، قال تعالى:
{ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله والذين ءامنوا أشد حبا لله }. [البقرة: 165.]
فأهل (لا إله إلا الله) يحبون الله حبا خالصًا، وأهل الشرك يحبونه ويحبون معه غيره، وهذا ينافي مقتضى لا إله إلا الله.
ب ـ وشروط شهادة أن محمدًا رسول الله هي:
1 ـ الاعتراف برسالته، واعتقادها باطنًا في القلب.
2 ـ النطق بذلك، والاعتراف به ظاهرًا باللسان.
3 ـ المتابعة له؛ بأن يعمل بما جاء به من الحق، ويترك ما نهى عنه من الباطل.
4 ـ تصديقه فيما أخبر به من الغيوب الماضية والمستقبلة.
5 ـ محبته أشد من محبة النفس والمال والولد والوالد والناس أجمعين.
6 ـ تقديم قوله على قول كل أحد، والعمل بسنته.
رابعًا: مقتضى الشهادتين:
أ ـ مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله: هو ترك عبادة ما سوى الله من جميع المعبودات، المدلول عليه بالنفي وهو قولنا: (لا إله). وعبادة الله وحده لا شريك له، المدلول عليه بالإثبات، وهو قولنا: (إلا الله)، فكثير ممن يقولها يُخالف مقتضاها؛ فيثبت الإلهية المنفية للمخلوقين والقبور والمشاهد والطواغيت والأشجار والأحجار.
وهؤلاء اعتقدوا أن التوحيد بدعة، وأنكروه على من دعاهُم إليه، وعابوا على من أخلصلى الله عليه وسلم العبادة لله.
ب ـ ومقتضى شهادة أن محمدًا رسول الله: طاعتهُ وتصديقُهُ، وترك ما نهى عنه، والاقتصار على العمل بسنته، وترك ما عداها من البدع والمحدثات، وتقديم قوله على قول كل أحد.
خامسًا: نواقض الشهادتين:

هي نواقض الإسلام؛ لأن الشهادتين هنا هما اللتان يدخل المرء بالنطق بهما في الإسلام، والنطق بهما اعتراف بمدلولهما، والتزام بالقيام بما تقضيانه؛ من أداء شعائر الإسلام، فإذا أخل بهذا الالتزام فقد نقض التعهد الذي تعهد به حين نطق بالشهادتين. ونواقض الإسلام كثيرةٌ قد عقد لها الفقهاء في كتب الفقه بابًا خاصًا سموه (باب الردة)، وأهمها عشرة نواقض ذكرها شيخ الإسلام محمدُ بنُ عبد الوهاب رحمه الله في قوله:

1 ـ الشرك في عبادة الله، قال الله تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} [النساء: 48، 116ـ]، وقال تعالى: {إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار (72)} [المائدة: 72ـ]. ومنه الذبحُ لغير الله؛ كالذبح للأضرحة أو الذبح للجن.

2 ـ من جعل بينَهُ وبينَ الله وسائط؛ يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم؛ فإنه يكفر إجماعًا.

3 ـ من لم يكفر المشركين، ومن يشكّ في كفرهم، أو صحح مذهبهم؛ كفر.

4 ـ من اعتقد أن هدي غير النبي صلى الله عليه وسلم أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون حكم الطواغيت على حكم الرسول صلى الله عليه وسلم، ويفضلون حكم القوانين على حكم الإسلام.

5 ـ من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ـ ولو عمل به ـ؛ كفر.

6 ـ من استهزأ بشيء من دين الرسول أو ثوابه أو عقابه؛ كفر، والدليل على ذلك قوله تعالى: {قل أبالله وءايته ورسوله كنتم تستهزءون (65) لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم }. [التوبة: 65، 66.]

7 ـ السحرُ، ومنهُ الصرفُ والعطفُ (لعله يقصد عمل ما يصَرفُ الرجلَ عن حب زوجته، أو عمل ما يحببها إليه) فمن فعلَه، أو رضي به؛ كفرَ، والدليل قوله تعالى: {وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر }. [البقرة: 102.]

8 ـ مظاهرة المشركين، ومعاونتهم على المسلمين، والدليل قوله تعالى: {ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين (51)} [المائدة: 51.]

9 ـ من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم، كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى، عليه السلام؛ فهو كافر. قلت: وكما يعتقده غلاة الصوفية



أنهم يَصــلون إلى درجــةٍ، لا يحتــاجون مَعها إلى متابعة الرســول صلى الله عليه وسلم.

10 ـ الإعــراض عن دين اللــه، لا يتعلمُــهُ، ولا يعمل بــه، والــدليل قوله تعـــالى: {والـــذين كفـــروا عما أنـــذروا معرضـــون (3)} [الأحقاف: 3.]، {ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون (22) }. [السجدة: 22.]

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه اللــه: (لا فــرق في جميع هذه النواقض، بين الهازل والجاد والخائف، إلا المكــره. وكلها من أعظم ما يكون خطرًا، وأكثر ما يكون وقوعًا، فينبغي للمســلم أن يحذرَها، ويخاف منها على نفسه، نعوذُ بالله من موجبــات غضــبه، وأليم عقابه). [مجموعة التوحيد النجدية صــلى الله عليه وســلم 37 ـ 39.]

الفصل الثالث
في التشريع

التشـريع حق لله تعـالى: والمـراد بالتشـريع: ما ينزِّلُه الله لعبـاده من المنهج الذي يسـيرون عليه في العقائد والمعـاملات وغيرهـا؛ ومن ذلك التحليل والتحريم، فليس لأحد أن يحل إلا ما أحله اللـه، ولا يحـرم إلا ما حـرم اللـه، قـال تعـالى: {ولا تقولـوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلل وهذا حـرام لتفـتروا على الله الكـذب} [النحل: 116ـ]، وقال تعالى: {قل أرءيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل ءالله أذن لكم أم على الله تفترون (59) }. [يونس: 59.]

فقد نهى الله عن التحليل والتحـــريم: بـــدون دليل من الكتـــاب والسنة، وأخبر أن ذلك من الكذب على الله، كما أخبر سُبحانه أنَّ من أوجَبَ شـيئًا أو حـرَّمَ شـيئًا من غـير دليـل؛ فقد جعل نفسه شريكًا لله فيما هو من خصائصه، وهو التشريع، قـال تعـالى: {أم لهم شـــركاؤا شـــرعوا لهم من الـــدين ما لم يـــأذن به الله }. [الشورى: 21.]

ومن أطـاع هـذا المشـرِّع من دون الله وهو يعلم بـذلك ووافقه على فعلـه، فقد أشـركه مع اللـه، قـال تعـالى: {وإن أطعتمـوهم إنكم لمشركون (121) }. [الأنعام: 121.]

يعني: الـذين يُحلـون ما حـرَّم الله من الميتـات، مَن أطـاعهم في ذلك فهو مشرك، كما أخبر سبحانه أن من أطاع الأحبار والرهبان في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحله اللـه؛ فقد اتخـذهم أربابًا منن دون الله، قال تعالى: {اتخـذوا أحبـارهم ورهبـانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون (31) }. [التوبة: 312.]

ولما سمع عديّ بنُ حـاتم ــ رضي الله عنه ــ هـذه الآيـة، قـال: يا رسـول اللـه، إنَّا لسـنا نعبـدهم، فقـال له النـبي صـلى الله عليه وسلم: " أليسوا يُحلون ما حرَّم الله فتحلونـه، ويحرمـون ما أحل الله فتحرمونه ؟ " قال: بلى، قـال: " فتلك عبـادتهم ". [الحـديث رواه الترمذي.]

قال الشيخُ عبد الرحمن بن حسن ــ رحمه الله ــ: (وفي الحـديث دليل على أنَّ طاعةَ الأحبار والرهبان في معصية الله؛ عبـادة لهم من دون اللـه، ومن الشـرك الأكـبر الـذي لا يغفـره اللـه؛ بقوله تعالى في آخر الآية: {وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون (31)}.



ونظير ذلك قوله تعـالى: {ولا تـأكلوا مما لم يـذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحـون إلى أوليـائهم ليجـادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون (121) }. [الأنعام: 121.]

وهـذا وقع فيه كثـيرٌ من النَّاس مع من قلـدوهم؛ لعـدم اعتبـارهم الدليل إذا خالف المُقلَّدَ؛ وهو من هذا الشرك) انتهى.

فالتزام شرع الله، وترك شرع ما سواه، هو من مقتضى لا إله إلا الله، والله المستعان.

الفصل الرابع

العبادةُ: مَعناها، شُمولها

1 ـ معنى العبادة:

أصل العبادة التذلل والخضوع.

وفي اشرع: لها تعاريف كثيرة، ومعناها واحد...

منها: أنَّ العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمرَ الله به على ألسنة رسله.

ومنها: أن العبادة، معناها: التذلُّل لله سبحانه فهي: غايةُ الذلِّ لله تعـالى مع غاية حُبـه، والتعريف الجـامع لها هو أن العبـادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه؛ من الأقـوال والأعمـال الظـاهرة والباطنة.

وهي منُقسمة على القلب واللسان والجوارح، فالخوف والرجـاء، والمحبة والتوكـل، والرغبة والرهبـة: عبـادة قلبيـة، والتسـبيح والتهليل والتكبير، والحمد والشكر باللسان والقلب: عبادة لسانية قلبية.

والصلاة والزكاة والحج والجهاد: عبادة بدنية قلبيـة، إلى غـير ذلك من أنـواع العبـادة الـتي تجـري على القلب واللسـان والجـوارح، وهي كثيرة.

والعبادةُ: هي التي خلق الله الخلق من أجلهـا، قـال تعـالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبـدون (56) ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطمعـون (57) إن الله هو الـرزاق ذو القـوة المـتين (58) }. [الذاريات: 56 ـ 58.]

فـأخبرَ سـبحانه أن الحكمة من خلق الجن والإنس: هي قيـامهم بعبـادة اللـه، والله غـنيٌّ عن عبـادتهم، وإنما هم المحتـاجون إليها لفقـرهم إلى الله تعـالى، فيعبدونه على وفق شـريعته، فمن أبى أن يعبد اللـه؛ فهو مسـتكبر. ومن عبـده وعبد معه غـيره؛ فهو مشرك. ومن عبده وحده بغـير ما شـرع؛ فهو مبتـدع. ومن عبـده وحده بما شرع فهو المؤمن الموحِّد.

2 ـ أنواع العبادة وشمولها:

العبادة لها أنواع كثيرة؛ فهي تشمل كل أنواع الطاعـات الظـاهرة على اللسان والجـوراح، والصـادرة عن القلب؛ كالـذكر والتسـبيح والتهليل وتلاوة القرآن، والصلاة والزكاة والصيام، والحج، والجهاد والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر، والإحسـان إلى الأقـارب واليتـامى والمسـاكين وابن السـبيل، وكـذلك حب الله ورسـوله، وخشية الله والإنابة إليـه، وإخلاصلى الله عليه وسـلم الـدين لـه، والصبر لحكمه والرضا بقضائه، والتوكل عليـه، والرجـاء لرحمتـه،



والخوف من عذابه، فهي شاملة لكل تصرفات المـؤمن؛ إذا نـوى بها القربة أو ما يعين عليهـا. حـتى العـادات، إذا قصد بها التقَـوِّي على الطاعات، كـالنوم والأكل والشـرب، والـبيع والشـراء وطلب الرزق والنكاح، فإن هذه العادات مع النية الصالحة تصيرُ عبادات؛ يثاب عليها، وليست العبادة قاصرة على الشعائر المعروفة.

الفصل الخامس

في بيان مفاهيمَ خاطئةٍ في تَحدِيد العِبادَة

العبادات توفيقية، بمعـنى: أنه لا يشـرع شـيء منها إلا بـدليل من الكتاب والسنة، وما لم يشرع يعتبر بدعة مردودة، كما قال النـبي صلى الله عليه وسلم: " من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد " [متفق عليه.] أي مردود عليه عمله، لا يقبل منـه، بل يـأثم عليـه؛ لأنه معصية وليس طاعة، ثم إن المنهج السليم في أداء العبـادات المشروعة هـو: الاعتـدال بين التسـاهل والتكاسـل؛ وبين التشـدد والغلـو. قـال تعـالى لنبيه صـلى الله عليه وسـلم: {فاسـتقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا }. [هو: 112.]

فهـــذه الآية الكريمة فيها رسم لخطة المنهج الســـليم في فعل العبـــادات، وذلك بالاســـتقامة في فعلها على الطريق المعتـــدل؛ الذي ليس فيه إفراط ولا تفريط؛ حسب الشـرع (كما أمـرت) ثم أكد ذلك بقولـه: (ولا تطغـوا) والطغيـان: مجـاوزة الحد بالتشـدد والتنطع، وهو الغلو. ولما علم صلى الله عليه وسلم بأن ثلاثة من أصـحابه تقـالوا في أعمـالهم، حيث قـال أحـدهم: أنا أصـوم ولا أفطر، وقال الآخر: أنا أصلي ولا أرقد، وقـال الثـالث: أنا لا أتـزوج النسـاء. قـال صـلى الله عليه وسـلم: " أما أنا فأصـوم وأتـزوج النســاء، فمن رغب عن سُــنَّتي فليس مــني ". [الحـديث متفق عليه.]

وهناك الآن فئتان من الناس على طرفي نقيض في أمر العبادة.

الفئة الأولى: قَصَّرتْ في مفهوم العبادة وتساهلت في أدائها حتى عطلت كثيرًا من أنواعها، وقصرتها على أعمال محدودة، وشـعائر قليلة تؤدي في المسجد فقـط، ولا مجـال للعبـادة في الـبيت، ولا في المكتب، ولا في المتجر، ولا في الشارع، ولا في المعــاملات، ولا في السياســة، ولا الحكم في المنازعـــات، ولا غـــير ذلك من شئون الحياة.

نعم للمسجد فضلٌ، ويجب أن تؤدي فيه الصلوات الخمس، ولكن العبادة تشمل كل حياة المسلم؛ داخل المسجد وخارجه.

والفئة الثانيـة: تشـددت في تطـبيق العبـادات إلى حد التطـرف، فـــرفعت المســـتحبات إلى مرتبة الواجبـــات، وحَـــرَّمتْ بعض المباحات، وحكمت بالتضليل أو التخطئة على من خالف منهجهـا، وخَطَّأَ مفاهيمها. وخير الهدي هدي محمد صـلى الله عليه وسـلم، وشر الأمور محدثاتها.

الفصل السادس
في بيان ركائز العبودية الصحيحة

إن العبادة ترتكز على ثلاث ركائز هي: الحبُ والخوفُ والرجاء.
فالحب مع الذل، والخوف مع الرجاء، لا بد في العبادة من اجتماع هـذه الأمـور، قـال تعـالى في وصف عبـاده المؤمـنين: {يحبهم ويحبونه} [المائدة: 54ـ]، وقال تعالى: {والذين ءامنوا أشد حبا لله }. [البقرة: 165.]
وقـال في وصف رُسُـله وأنبيائـه: {إنهم كـانوا يسـارعون في الخـيرات ويـدعوننا رغبا ورهبا وكـانوا لنا خاشـعين (90)ـ }. [الأنبياء: 90.]
وقال بعض السلف: من عبد الله بالحب وحـده فهو زنـديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مـرجئ، ومن عبـده بـالخوف وحـده فهو حروري [أي: من الخوارج.]، ومن عبده بالحب والخوف والرجـاء فهو مؤمن مُوحِّد. ذكر هـذا شـيخُ الإسـلام في رسـالة (العبوديـة) وقال أيضًا: (فـدينُ اللـه: عبادته وطاعته والخضـوع لـه، والعبـادة أصل معناها: الذل. يقـال: طريـقٌ مُعبَّدٌ، إذا كـان مُـذَلَّلًا قد وطئته الأقـدامـ لكن العبـادة المـأمور بها تتضـمن معـنى الـذل، ومعـنى الحب، فهي تتضـمن غاية الـذل لله تعـالى، بغاية الحب لـه، ومن خضَعَ لإنسان مع بغضه له لا يكون عابـدًا لـه، ولو أحب شـيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له، كما يُحبُّ الرجل ولده وصديقه، ولهـذا لا يكفي أحـدهما في عبـادة الله تعـالى، بل يجب أن يكـون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شـيء، بل لا يسـتحق المحبة والخضـوع التـام إلا اللـه...) انتهى. [انظر: مجموعة التوحيد النجدية صلى الله عليه وسلم 549.]
هذه ركائز العبودية الـتي تـدور عليهـا، قـال العلامة ابن القيم في النونية:

وعبادةُ الرحمنِ غايةُ حُبِّه
مع ذُلِّ عابدِه هُما قطبان
وعليهما فَلَكُ العبادة دائرٌ
ما دار حتى قامتِ القُطبان
ومَدارهُ بالأمر أمرِ رَسوله
لا بالهوى والنفسِ والشيطانِ

شَبَّه ـ رحمَهُ اللهُ ـ دورانَ العبـادة على المحبة والـذل للمحبـوب، وهو الله جلا وعلا؛ بـدوران الفلك على قطبيـه، وذكر أن دوران فلك العبادة بأمر الرسـول صـلى الله عليه وسـلم وما شـرعه، لا بالهوى، وما تأمر به النفس والشيطان، فليس ذلك من العبادة.



فما شـرعه الرسـول صـلى الله عليه وسـلم هو الـذي يـدير فلك العبادة، ولا تُديره البدع والخرافات والأهواء وتقليد الآباء.



3 ـ توحيد الأسماء والصفات

ويتضمن ما يلي:

أولًا: الأدلَّةُ من الكتــاب والســنة والعقل على ثبــوت الأســماء والصفات.

ثانيًا: منهج أهل السُّنَّة والجماعة في أسماء الله وصفاته.

ثالثًا: لردُّ على من أنكر الأسماء والصفات، أو أنكر شيئًا منها.



أولًا: الأدلة من الكتـــاب والســـنة والعقل على ثبـــوت الأســـماء والصفات

أ ـ الأدلة من الكتاب والسنة:

ســـبق أن ذكرنا أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقســـام: توحيـــدُ الرُّبوبيـــة، وتوحيد الألوهيـــة، وتوحيد الأســـماء والصـــفات، وذكرنا جملة من الأدلة على النـــوعين الأولين: توحيد الربوبيـــة، وتوحيد الألوهية. والآن نذكر الأدلة على النوع الثالث: وهو توحيد الأســماء والصفات.

فإليك شـــيئًا من أدلة الكتـــاب والســـنة: فمن أدلة الكتـــاب: قوله تعالى: {ولله الأسماء الحسنى فـادعوه بها وذروا الـذين يلحـدون في أســمائه ســيجزون ما كـانوا يعملـون (180) }. [الأعـراف: 180.]

أثبت الله ســـبحانه في هـــذه الآية لنفسه الأســـماء، وأخـــبر أنَّها حُسنى. وأمر بدعائه؛ بأن يُقال: يا اللـه، يا رحمن، يا رحيم، يا حي يا قيـوم، يا رب العـالمين. وتوعد الـذين يُلحـدون في أســمائه؛ بمعنى أنهم يميلـون بها عن الحـق؛ إما بنفيها عن اللـه، أو تأويلها بغير معناها الصحيح، أو غير ذلك من أنـواع الإِلحـاد. توعـدهم بأنه سَيُجازيهم بعملهم السيء.

وقال تعالى: {الله لا إله إلا هو له الأســماء الحســنى (8)} [طـه: 8ـ]، {هو الله الـذي لا إله إلا هو عـالم الغيب والشـهادة هو الرحمن الـرحيم (22) هو الله الـذي لا إله إلا هو الملك القـدوس السلام المؤمن المهمين العزيز الجبـار المتكـبر سـبحان الله عما يشـــركون (23) هو الله الخـــالق البـــارئ المصـــور له الأســـماء الحسنى يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم (24) }. [الحشر: 22 ـ 24.]

فدلّت هذه الآيات على إثبات الأسماء لله.

2 ـ ومن الأدلة على ثبـوت أسـماء الله من سـنة الرسـول صـلى الله عليه وسلم: ما رواه أبو هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن لله تسـعةً وتسـعين اسـمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة ". [متفق عليه.] وليست أسماءُ الله منحصرة في هذا العـدد، بـدليل ما رواه عبد الله بن مسـعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " أسألُكَ بِكُلِّ اسمٍ هو لَكَ، سـمَّيتَ به نفسـك، أو أنزلتَـهُ في كِتابـكَ، أو علَّمتـهُ أحدًا من خَلْقك، أو استأثرت به في عِلم الغَيْب عِنـدك، أن تجعـلَ القُـرآن العظيمَ ربيـعَ قلـبي " الحـديث. [رواه أحمد في المسـند وصـححه ابن حبـان ــ وقد دل على عـدم حصر أسـماء الله في



تسعة وتسعين. فيكون المراد بالحديث ــ والله أعلم ــ أن من تعلم هذه الأسماء التسعة والتسعين ودعا الله بها وعبده بها دخل الجنة ويكون ذلك خاصية لها.]

وكل اسم من أسماء الله، فإنه يتضمن صفة من صفاته؛ فالعليمُ يدل على العلم، والحكيم يدل على الحكمة، والسَّميعُ البصير يدلان على السمع والبصر، وهكذا كلُّ اسم يدل على صفة من صفات الله تعالى، وقال تعالى: {قل هو الله أحد (1) الله الصمد (2) لم يلد ولم يولد (3) ولم يكن له كفوا أحد (4) }. [سورة الإخلاصلى الله عليه وسلم.]

عن أنس رضي الله عنه قال: كانَ رجلٌ من الأنصار يؤمهم في مسجد قُباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به؛ افتتح بـ (قل هو الله أحد)، حتى يفرغ منها، ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنعُ ذلك في كل ركعة، فكلَّمهُ أصحابهُ فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنه تجزئك حتَّى تقرأ بالأخرى ! فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلتُ، وإن كرهتم تركتكم، فلما أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر. فقالَ: " يا فُلانُ، ما يمنعُك أن تفعلَ ما يأمرك به أصحابُك ؟ وما حملَكَ على لُزوم هذه السُّورة في كل ركعة ؟ " قال: إنِّي أُحبُّها، قال: " حبُّكَ إياها أدْخَلَكَ الجنَّة ". [رواه البخاري في صحيحه.]

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثَ رجلًا على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختمُ بـ (قل هو الله أحد)، فلما رجعوا ذكروا ذلك للني صلى الله عليه وسلم فقال: " سلوه: لأي شيء يفعلُ ذلك ؟ " فسألوه، فقال: لأنها صفةُ الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: " أخبروه أن الله تعالى يحبه " [رواه البخاري في صحيحه.] يعني أنها اشتملتْ على صفاتِ الرَّحمن.

وقد أخبرَ سبحانه أنَّ له وجهًا، قال {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (27) }. [الرحمن: 27.]

وأن له يدين، فقال: {لما خلقت بيدي} [صلى الله عليه وسلم: 75.]، {بل يداه مبسوطتان }. [المائدة: 64.]

وأنه يرضى ويحب ويغضب ويسخط، إلى غير ذلك مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم.

ب ـ وأما الدليل العقلي على ثبوت الأسماء والصفات التي دلَّ عليها الشرع فهو أن يُقال:



1 ـ هذه المخلوقـات العظيمة على تنوعهـا، واختلافهـا، وانتظامها في أداء مصالحها، وسيرها في خططها المرسومة لها، تـدل على عظمة الله وقُدرته، وعلمه وحكمته، وإرادته ومشيئته.
2 ـ الإنعـام والإحسـان، وكشف الضـر، وتفـريج الكربـات؛ هـذه الأشياء تدل على الرحمة والكرم والجود.
3 ـ والعقاب والانتقام من العصـاة؛ يـدلان على غضب الله عليهم وكراهيته لهم.
4 ـ وإكرامُ الطائعين وإثابتهم؛ يـدلان على رضا الله عنهم ومحبته لهم.



ثانيًا: منهجُ أهلِ السنَّة والجماعة في أسماء الله وصفاته

منهجُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة؛ من السلف الصالح وأتباعهم: إثباتُ أسماءِ الله وصفاته، كما وردت في الكتاب والسنة، وينبني منهجهم على القواعد التالية:

1 ـ أنهم يُثبتون أسماء الله وصفاته؛ كما وردت في الكتاب والسنة على ظاهرها، وما تدل عليه ألفاظها من المعاني، ولا يؤولونها عن ظاهرها، ولا يُحرفون ألفاظها ودلالتها عن مواضعها.

2 ـ ينفون عنها مشابهة صفات المخلوقين، كما قال تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير (11)} [الشورى: 11.]

3 ـ لا يتجاوزون ما ورد في الكتاب والسنة؛ في إثبات أسماء الله وصفاته، فما أثبته الله ورسوله من ذلك أثبتوه، وما نفاهُ الله ورسولُه نفوه، وما سَكتَ عنه الله ورسوله سكَتُوا عنه.

4 ـ يَعتقدون أنَّ نصوصلى الله عليه وسلم الأسماءِ والصفات من المحكم الذي يُفهم مَعناه ويُفسَّر، وليستْ من المتشابه؛ فلا يُفوِّضون معناها، كما يَنسبُ ذلك إليهم مَن كَذَبَ عليهم، أو لم يعرف منهجهم من بعض المؤلفين والكتاب المعاصرين.

5 ـ يُفوّضونَ كيفية الصفات إلى الله تعالى، ولا يبحثون عنها.

ثالثًا: الردُّ على من أَنْكَرَ الأسماءَ والصفاتِ، أو أنكر بعضها
الذين يُنكرون الأسماء والصفات ثلاثة أصناف:
1 ـ الجهمية: وهم أتباع الجهْمِ بن صفوان، وهؤلاء يُنكرون الأسماء والصفات جميعًا.
2 ـ المعتزلة: وهم أتباعُ واصل بن عطاء؛ الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، وهؤلاء يُثبتون الأسماءَ على أنها ألفاظ مُجرَّدة عن المعاني، وينفون الصفات كلها.
3 ـ الأشاعرة [هم أتباع مذهب أبي الحسن الأشعري ــ قبل رجوعه إلى مذهب أهل السنة ــ ولم يرجعوا عما رجع عنه، فانتسابهم إليه غير صحيح.] والماتوريدية [هم أتباع أبي منصور الماتوريدي.] ومن تبعهم، وهؤلاء يثبتون الأسماءَ وبعضَ الصِّفات، وينفون بعضَها، والشُّبهة التي بنوا عليها جميعًا مذاهبهم: هيَ الفرارُ من تشبيه الله بخلقه بزعمهم؛ لأن المخلوقين يُسَمَّون ببعضِ تلك الأسماء، ويوصفون بتلك الصفات، فيلزمُ من الاشتراك في لفظ الاسم والصفة ومعناهما: الاشتراك في حقيقتهما، وهذا يَلزمُ منه تشبيه المخلوق بالخالق في نظرهم، والتزموا حيال ذلك أحد أمرين:
أ ـ إما تأويلُ نصوصلى الله عليه وسلم الأسماء والصفات عن ظاهرها، كتأويل الوجه بالذات، واليد بالنعمة.
ب ــ وإما تفويض معاني هذه النصوصلى الله عليه وسلم إلى الله، فيقولون: الله أعلم بمراده منها؛ مع اعتقادهم أنها ليست على ظاهرها.
وأول من عُرفَ عنه إنكار الأسماء والصفات: بعضُ مشركي العرب، الذين أنزل الله فيهم قوله تعالى: {كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عيهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن }. [الرعد: 30.]
وسببُ نزول هذه الآية: أنَّ قريشًا لما سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يذكر الرحمن؛ أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: {وهم يكفرون بالرحمن }. وذكر ابن جرير أن ذلك كان في صلح الحديبية؛ حين كتب الكاتبُ في قضية الصلح الذي جرى بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم: " بسم الله الرحمن الرحيم " فقالت قريش: أما الرحمن فلا نَعرفهُ.
وروى ابنُ جرير أيضًا عن ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ساجدًا يقول: " يا رحمن يا رحيم " فقال المشركون: هذا يزَعمُ أنه يدعو واحدًا، وهو يدعو مثنى. فأنزل



الله: {قل ادعوا الله أو أدعوا الـرحمن أيا ما تـدعوا فله الأسـماء الحسنى }. [الإسراء: 110.]
وقال تعالى في سورة الفرقان: {وإذا قيل لهم اسجدوا للـرحمن قالوا وما الرحمن }. [الفرقان: 60.]
فهؤلاء المشركون هُمْ سلف الجهمية، والمعتزلة والأشاعرة، وكل من نفى عن الله ما أثبتَـهُ لنفسـه، أو أثبته له رسـوله صـلى الله عليه وسلم من أسماء الله وصفاته. وبئسَ السلف لِبئس الخلف.
والرد عليهم من وجوه:
الوجه الأول:
أن الله سبحانه وتعالى أثبتَ لنفسه الأسماءَ والصـفاتِ، وأثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم، فنفيُها عن الله أو نفي بعضِها: نفيٌ لما أثبته الله ورسوله، وهذا محادة لله ورسوله.
الوجه الثاني:
أنه لا يلزم من وجود هذه الصفات في المخلوقين، أو من تسـمي بعض المخلـوقين بشـيء من تلك الأسـماء المشـابهة بين الله وخلقـه، فـإن لله سـبحانه أسماءً وصـفات تخصـه، وللمخلـوقين أسـماء وصـفات تخصـهم، فكمَا أن لله سُـبحانه وتعـالى ذاتًا لا تشـبه ذوات المخلـوقين، فله أسـماء وصـفات لا تشـبه أسـماءَ المخلـوقين وصـفاتهم، والاشـتراك في الاسم والمعـنى العـام لا يوجب الاشتراك في الحقيقة، فقد سَمَّى اللهُ نفسَهُ عليمًا، حليمًا، وسمَّى بعضَ عبـاده عليمًـا، فقـال: {وبشـروه بغلام عليم (28)} [الـذاريات: 28.] يعـني إسـحاق، وسـمى آخر حليمًـا، فقـال: {فبشـرناه بغلم حليم (101)} [الصـافات: 101).] يعـني إسـماعيل، وليسَ العليم كـالعليم، ولا الحليم كـالحليم، وسـمَّى نفسه فقال: {إن الله كـان سـميعًا بصـيرًا (58)} [النسـاء: 58.] وسمى بعض عباده سميعًا بصيرًا، فقـال: {إنا خلقنا الإنسـان من نطفة أمشـاج نبتليه فجعلنـاه سـميعًا بصـيرًا} [الإنسـان: 2ـ]، وليس السميعُ كالسَّميعُ ولا البصيرُ كالبصيرُ.
وسمَّى نفسهُ بالرؤوف الـرحيم فقـال: {إن الله بالنـاس لـرءوف رحيم (65)} [الحج: 65ـ]، وسـمَّى بعضَ عبـاده رؤوفًا رحيمًـا، فقــالَ: {لقد جــاءكم رســول من أنفســكم عزيز عليه ما عنتم حريصــلى الله عليه وســلم عليكم بــالمؤمنين رءوف رحيم} [التوبة: 128.]، وليس الرؤوف كالرؤوف، ولا الرحيمُ كالرَّحيم.
وكـذلك وصف نفسَـهُ بصـفاتٍ، ووصَـفَ عبـاده بنظـير ذلـك، مثل قوله: {ولا يحيطون بشـيء من علمـه} [البقـرة: 255.] فوصف نفسَهُ بالعلم، ووصف عباده بالعلم، فقال: {وما أوتيتم من نالعلم



إلا قليلا (85)} [الإسراء: 85.]، وقال: {وفوق كل ذي علم عليم (76)} [يوسف: 76ـ]، وقال: {وقال الذين أوتوا العلم} [القصصلى الله عليه وسلم: 80ـ]، ووصف نفسه بالقوة فقال: {إن الله لقوي عزيز (40)} [الحج: 40.] {إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين (58)} [الذاريات: 58ـ]، ووصف عبادهُ بالقوة فقال: {الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة} [الروم: 54.]، إلى غير ذلك. ومعلومٌ أن أسماء الله وصفاته تخصه وتليق به، وأسماء المخلوقين تخصهم وتليق بهم، ولا يلزمُ من الاشتراك في الاسم والمعنى الاشتراك في الحقيقة؛ وذلك لعدم التماثل بين المُسَمَّميين والموصوفين، وهذا ظاهر، والحمد لله.

الوجه الثالث:
أنَّ الذي ليس له صفات كمال، لا يصلح أن يكون إلهًا؛ ولهذا قـال إبراهيم لأبيه: {لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر }. [مريم: 42.]
وقال تعالى في الرد على الـذين عبـدوا العجـل: {ألم يـروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلًا }. [الأعراف: 148.]
الوجه الرابع:
أنَّ إثبات الصفات كمالٌ، ونفيها نقصـلى الله عليه وسـلم، فالـذي ليس له صفات، إما معـدومٌ وإما ناقصـلى الله عليه وسـلم، والله تعالى مُنزه عن ذلك.
الوجه الخامس:
أنَّ تأويلَ الصّفاتِ عن ظاهرها لا دليلَ عليه، فهو باطلٌ، وتفـويض معناها ؟ يلزم منه أن الله خاطبنا في القُـرآنِ بما لا نفهم معنـاه، مع أنه أمرنا أن ندعوه بأسمائه، فكيفَ ندعوه بما لا نفهم معناه ؟ وأمرَنا بتدبر القرآن كله، فكيفَ يأمرنا بتدبر ما لا يُفهم معناه ؟
فتبين من هذا أنه لا بد من إثبات أسـماء الله وصـفاته على الوجه اللائق بالله، مع نفي مشابهة المخلوقين، كما قـال تعـالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير (11) }. [الشورى: 11.]
فنفى عن نفسه مُماثلة الأشـياء، وأثبت له السـمع والبصـر، فـدل على أن إثبات الصفات لا يلزم منه التشبيه، وعلى وجـوب إثبـات الصـفات مع نفي المشـابهة، وهـذا معـنى قـول أهل السـنة والجماعة في النفي والإثبـات في الأسـماء والصـفات: إثبـات بلا تمثيل وتنزيه بلا تعطيل.

الباب الثالث

في بيان الشرك والانحراف في حياة البشرية

ولمحة تاريخية عن الكفر والإلحاد والشرك والنِّفاق

ويتضمن الفصول التالية:

الفصل الأول: الانحراف في حياة البشرية.

الفصل الثاني: الشرك ـ تعريفه وأنواعه.

الفصل الثالث: الكفر ـ تعريفه وأنواعه.

الفصل الرابع: النفاق ـ تعريفه وأنواعه.

الفصل الخامس: بيان حقيقة كل من: الجاهلية ـ الفسق ـ الضلال ـ الردة: أقسامها، وأحكامها.

الفصل الأول

الانحراف في حياة البشرية

خلق الله الخلق لعبادته، وهيأ لهم ما يعينهم عليها من رزقه، قال تعالى: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون (56) ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون (57) إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين (58) }. [الذاريات: 56 ـ 58.]

والنفسُ بفطرتها إذا تركت؛ كانت مقرة لله بالإلهية، مُحبَّةً لله، تَعبدُه لا تُشرك به شيئاً، ولكن يفسها وينحرف بها عن ذلك ما يُـزيِّنُ لها شياطين الإنس والجن بما يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا، فالتوحيد مركوز في الفطرة، والشرك طارئ ودخيل عليها، قال الله تعالى: {فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله }. [الروم: 30.]

وقال صلى الله عليه وسلم: " كل مولود يُولَدُ على الفطرة فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنصِّرانه، أو يُمجِّسانه " [في الصحيحين من حديث أبي هريرة.]. فالأصلُ في بني آدم: التوحيد.

والدينُ الإسلام وكان عليه آدم عليه السلام، ومنْ جاءَ بَعدَهُ من ذُرّيته قُرونًا طويلة، قال تعالى: {كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين }. [البقرة: 213.]

وأول ما حدث الشرك والانحراف عن العقيدة الصحيحة في قوم نوح، فكان عليه السلام أول رسول إلى البشرية بعد حدوث الشرك فيها: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده }. [النساء: 163.]

قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرةُ قرون؛ كلهم على الإسلام.

قال ابن القيم [إغاثة اللهفان (2/102).]: (وهذا القولُ هو الصواب قطعًا؛ فإنَّ قراءة أُبيّ بنِ كعبٍ ـ يَعني: في آية البقرة ــ: (فاختلفوا فبعث الله النبيين).

ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى في سورة يونس: {وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا}). [يونس: 19.]

يريد ـ رَحمهُ اللهُ ـ أنَّ بعثةَ النبيين سببُها الاختلاف عما كانوا عليه من الدين الصحيح، كما كانت العربُ بعد ذلك على دين إبراهيمَ عليه السلام؛ حتَّى جاء عمرو بن لحي الخزاعي فغير دينَ إبراهيم، وجَلبَ الأصنام إلى أرضِ العرب، وإلى أرض الحجاز بصفة خاصة، فَعُبدت من دون الله، وانتشر الشركُ في هذه البلاد المقدسة، وما جاورها؛ إلى أن بعث الله نبيه محمدًا خاتم النبيين

صلى الله عليه وسلم فدعا الناس إلى التوحيد، واتباع ملة إبراهيم، وجاهد في الله حق جهاده؛ حتى عادت عقيدة التوحيد وملة إبراهيم، وكسر الأصنام وأكمل الله به الدين، وأتم به النعمة على العالمين، وسارت على نهجه القرون المفضلة من صدر هذه الأمة؛ إلى أن فشا الجهل في القرون المتأخرة، ودخلها الدخيلُ من الديانات الأخرى، فعاد الشرك إلى كثير من هذه الأمة؛ بسبب دعاة الضلالة، وبسبب البناء على القبور، متمثلًا بتعظيم الأولياء والصالحين، وادعاء المحبة لهم؛ حتى بنيت الأضرحة على قبورهم، واتخذت أوثانًا تُعبدُ من دون الله، بأنواع القرُبات من دعاء واستغاثة، وذبح ونذر لمقامهم. وسَموا هذا الشرك: توسُّلًا بالصالحين، وإظهارًا لمحبتهم، وليس عبادة لهم، بزعمهم، ونسوا أن هذا هو قول المشركين الأولين حيث يقولون: {ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى }. [الزمر: 3.]

ومع هذا الشرك الذي وقع في البشرية قديمًا وحديثًا، فالأكثرية منهم يؤمنون بتوحيد الربوبية، وإنما يشركون في العبادة، كما قال تعالى: {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون (106) }. [يوسف: 106.]

ولم يجحد وجودَ الرب إلا نزرٌ يسير من البشر، كفرعون والملاحدة الدهريين، والشيوعيين في هذا الزمان، وجحودهم به من باب المكابرة؛ وإلا فهم مضطرون للإقرار به في باطنهم، وقرارة نفوسهم، كما قال تعالى: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا }. [النمل: 14.]

وعقولهم تعرف أن كل مخلوق لابد له من خالق، وكل موجود لابد له من موجد، وأن نظام هذا الكون المننضبط الدقيق لابد له من مدبر حكيم، قدير عليم، من أنكره فهو إما فاقد لعقله، أو مكابر قد ألغى عقله وسفه نفسه، وهذا لا عِبرةَ به.

الفصل الثاني

الشرك: تعريفه، أنواعه

أ ـ تعريفه:

الشرك هو: جعل شريك لله تعالى في ربوبيته وإلهيته.

والغالب الإشراك في الألوهية؛ بأن يدعو مع الله غيره، أو يصرف له شيئًا من أنواع العبادة، كالذبح والنذر، والخوف والرجاء والمحبة. والشركُ أعظمُ الذنوب؛ وذلك لأمور:

1 ـ لأنه تشبيه للمخلوق بالخالق في خصائصلى الله عليه وسلم الإلهية، فمن أشرك مع الله أحدًا فقد شبهه به، وهذا أعظم الظلم، قال تعالى: {إن الشرك لظلم عظيم (13) }. [لقمان: 13.]

والظلم هو: وضع الشيء في غير موضعه، فمن عبد غير الله؛ فقد وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير مستحقها، وذلك أعظم الظلم.

2 ـ أن الله أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب منه، قال تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشـــرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشـــاء }. [النساء: 48.]

3 ـ أن الله أخبر أنه حرَّم الجنة على المشرك، وأنه خالد مخلد في نار جهنم، قال تعالى: {إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار }. [المائدة: 72.]

4 ـ أن الشرك يُحبطُ جميعَ الأعمال، قال تعالى: {ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون (88) }. [الأنعام: 88.]

وقال تعالى: {ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين (65) }. [الزمر: 65.]

5 ـ أنَّ المشرك حلالُ الدم والمال، قال تعالى: {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد }. [التوبة: 5.]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أمرتُ أن أقاتلَ حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ". [رواه البخاري ومسلم.]

6 ـ أنَّ الشركَ أكبرُ الكبائر، قال صلى الله عليه وسلم: " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر " قلنا: بلى يا رسول الله، قال: " الإشراك بالله، وعقوق الوالدين... " الحديث [رواه البخاري ومسلم.]

قال العلامة ابن القيم: [الجواب الكافي صلى الله عليه وسلم 109.] (أخبر سُبحانه أن القصد بالخلق والأمر: أن يُعرفَ بأسمائه

وصفاته، ويُعبدَ وحده لا يُشرك به، وأن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، كما قال تعالى: {لقد أرسلنا رسلنا بالبيانات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط }. [الحديد: 25.]

فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل، ومن أعظم القسط: التوحيد، وهو رأس العدل وقوامه؛ وإن الشرك ظلم كما قال تعالى: {إن الشرك لظلم عظيم (13) }. [لقمان: 13.]

فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل، فما كان أشد منافاةً لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر).

إلى أن قال: (فلما كان الشرك منافيًا بالذات لهذا المقصود؛ كان أكبر الكبائر على الإطلاق، وحرم الله الجنة على كل مشرك، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد، وأن يتخذوهم عبيدًا لهم لما تركوا القيام بعبوديته، وأبى الله سبحانه أن يقبل لمشرك عملًا، أو يقبلَ فيه شفاعة، أو يَستجيب له في الآخرة دعوة، أو يقبل له فيها رجاء؛ فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله، حيث جعل له من خلقه ندًا، وذلك غاية الجهل به، كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك في الواقع لم يظلم ربَّه، وإنَّما ظَلَمَ نفسَه) انتهى.

7 ـ أنَّ الشركَ تنقصلى الله عليه وسلم وعيب نزه الرب سبحانه نفسه عنهما، فمن أشرك بالله فقد أثبت لله ما نزه نفسه عنه، وهذا غاية المحادَّةِ لله تعالى، وغاية المعاندة والمشاقَّة لله.

ب ـ أنواع الشرك:

الشرك نوعان:

النوع الأول: شرك أكبر يُخرج من الملة، ويخلَّدُ صاحبُهُ في النار، إذا مات ولم يتب منه، وهو صرفُ شيء من أنواع العبادة لغير الله، كدعاء غير الله، والتقرب بالذبائح والنذور لغير الله من القبور والجن والشياطين، والخوف من الموتى أو الجن أو الشياطين أن يضروه أو يُمرضوه، ورجاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله من قضاء الحاجات، وتفريج الكُربات، مما يُمارسُ الآن حولَ الأضرحة المبنية على قبور الأولياء والصاحين، قال تعالى: {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون (18) }. [يونس: 18.]

والنوع الثاني: شرك أصغر لا يخرج من الملة؛ لكنه ينقصلى الله عليه وسلم التوحيد، وهو وسيلة إلى الشرك الأكبر، وهو قسمان:

القسم الأول: شرك ظاهر على اللسان والجوارح وهو: ألفاظ وأفعال، فالألفاظ كالحلف بغير الله، قال صلى الله عليه وسلم: " من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك " [رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم.]. وقول: ما شاء الله وشئت، قال صلى الله عليه وسلم: لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت، فقال: " أجعلتني لله ندًا ؟! قُلْ: ما شاءَ الله وحده ". [رواه النسائي.]
وقول: لولا الله وفلان، والصوابُ أن يُقالَ: ما شاءَ الله ثم شاء فلان؛ ولولا الله ثم فلان، لأن (ثم) تفيدُ الترتيب مع التراخي، وتجعلُ مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، كما قال تعالى: {وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين (29) }. [التكوير: 29.]
وأما الواو: فهي لمطلق الجمع والاشتراك، لا تقتضي ترتيبًا ولا تعقيبًا؛ ومثله قول: ما لي إلا الله وأنت، و: هذا من بركات الله وبركاتك.
وأما الأفعال: فمثل لبس الحلقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه، ومثل تعليق التمائم خوفًا من العين وغيرها؛ إذا اعتقد أن هذه أسباب لرفع البلاء أو دفعه، فهذا شرك أصغر؛ لأن الله لم يجعل هذه أسبابًا، أما إن اعتقد أنها تدفع أو ترفع البلاء بنفسها؛ فهذا شرك أكبر لأنه تَعلّق بغير الله.
القسم الثاني من الشرك الأصغر: شرك خفي وهو الشرك في الإرادات والنيات، كالرياء والسمعة، كأن يعمل عملًا مما يتقرب به إلى الله؛ يريد به ثناء الناس عليه، كأنه يُحسن صلاته، أو يتصدق؛ لأجل أن يُمدح ويُثنى عليه، أو يتلفظ بالذكر ويحسن صوته بالتلاوة لأجل أن يسمعه الناس، فيُثنوا عليه ويمدحوه.
والرياء إذا خالط العمل أبطله، قال الله تعالى: {فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا (110) }. [الكهف: 110.]
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " أخوفُ ما أخافُ عليكم الشرك الأصغر " قالوا: يا رسول الله، وما الشرك الأصغر ؟ قال: " الرياء ". [رواه أحمد والطبراني والبغوي في شرح السنة.]
ومنه: العملُ لأجل الطمع الدنيوي، كمن يحج أو يؤذن أو يؤم الناس لأجل المال، أو يتعلم العلم الشرعي، أو يجاهد لأجل المال. قال النبي صلى الله عليه وسلم: " تَعِسَ عبدُ الدينار، وتعِسَ عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يُعطَ سخط ". [رواه البخاري.]



قـال الإمـام ابنُ القيم رحمه اللـه: (وأما الشـرك في الإرادات والنيات، فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقـلَّ من ينجو منـه. فمن أراد بعمله غـير وجه اللـه، ونـوى شـيئًا غـري التقـرب إليه وطلب الجزاء منـه؛ فقد أشـرك في نيته وإرادتـه، والإخلاصـلى الله عليه وسـلم: أن يُخلصـلى الله عليه وسـلم لله في أفعاله وأقوالـه، وإرادته ونيتـه. وهـذه هي الحنيفية ملة إبـراهيم الـتي أمر الله بها عباده كلهم، ولا يُقبـلُ من أحـدٍ غيرهـا، وهي حقيقة الإسـلام، كما قـال تعـالى: {ومن يتبغ غـير الإسـلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين (85) }. [آل عمران: 85.]

وهي ملَّةُ إبـراهيمَ ــ عليه السـلام ــ الـتي من رغب عنها فهُو من أسفَهِ السُّفهاء) [الجـواب الكـافي صـلى الله عليه وسـلم 115.] انتهى.

يتلخَّصـلى الله عليه وسـلم مما مر أن هنـاك فروقًا بين الشـرك الأكبر والأصغر، وهي:

1 ـ الشرك الأكبر: يُخرج من الملة، والشرك الأصغر لا يُخـرج من الملة، لكنه ينقصلى الله عليه وسلم التوحيد.

2 ـ الشرك الأكبرُ يخلَّدُ صاحبه في النار، والشرك الأصغير لا يُخلَّد صاحبُه فيها إن دَخَلها.

3 ـ الشركُ الأكبرُ يحبطُ جميع الأعمال، والشرك الأصـغر لا يحبط جميع الأعمال، وإنما يحبط الرياء والعمل لأجل الدنيا العمل الذي خالطاه فقط.

4 ـ الشرك الأكبر يبيح الدم والمال، والشرك الأصغر لا يبيحهما.

الفصل الثالث

الكفر: تعريفه ـ أنواعه

أ ـ تعريفه:

الكفر في اللغة: التغطية والستر، والكفر شرعًا: ضد الإيمان، فإن الكفر: عدم الإيمان بالله ورسله، سواء كان معه تكذيب، أو لم يكن معه تكذيب، بل مجرد شك وريب أو إعراض أو حسد، أو كبر أو اتباع لبعض الأهواء الصادة عن اتابع الرسالة. وإن كان المكذب أعظم كفرًا، وكذلك الجاحدُ والمكذِّب حسدًا؛ مع استيقان صدق الرسل. [مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (12/335).]

ب ـ أنواعه:

الكفر نوعان: النوع الأول: كفر أكبر يخرج من الملة، وهو خمسة أقسام:

القسم الأول: كفر التكذيب، والدليل: قوله تعالى: {ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين (68) }. [العنكبوت: 68.]

القسم الثاني: كفر الإباء والاستكبار مع التصديق، والدليل قوله تعالى: {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين (34) }. [البقرة: 34.]

القسم الثالث: كفر الشك، وهو كفر الظن، والدليل قوله تعالى: {ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدًا (35) وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلي ربي لأجدن خيرًا منها منقلبًا (36) قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلًا (37) لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدًا (38) }. [الكهف: 35 ـ 38.]

القسم الرابع: كفرُ الإعراض، والدليل قوله تعالى: {والذين كفروا عما أنذروا معرضون (3) }. [الأحقاف: 3.]

القسم الخامس: كفر النفاق، والدليل قوله تعالى: {ذلك بأنهم ءامنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون }. [المنافقين: 3.]

النوع الثاني: كفرٌ أصغرُ لا يُخرجُ من الملة، وهو الكُفرُ العملي، وهو الذنوب التي وردت تسميتها في الكتاب والسنة كفرًا، وهي لا تصل إلى حد الكفر الأكبر، مثل كفر النعمة المذكور في قوله تعالى: {وضرب الله مثلا قرية كانت ءامنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله }. [النحل: 112.]



ومثلُ قتال المسلم المذكور في قوله صلى الله عليه وسلم: " سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر ". [رواه البخاري ومسلم.]
وفي قوله صلى الله عليه وسلم: " لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض ". [رواه الشيخان.]
ومثل الحلف بغير الله، قال صلى الله عليه وسلم: " من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك ". [رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم.]
فقد جعل القاتل من الذين آمنوا، وجعله أخا لولي القصاصلى الله عليه وسلم فقال: {فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان }. [البقرة: 178.]
والمرادُ: أخوة الدين، بلا ريب.
وقال تعالى: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما }. [الحجرات: 9.]
إلى قوله: {إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم }. [الحجرات: 10.]
انتهى من شرح الطحاوية [صفحة (361) ط المكتب الإسلامي.] باختصار.
وملخصلى الله عليه وسلم الفروق بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر:
1 ـ أن الكفر الأكبر يخرج من الملة، ويحبط الأعمال، والكفر الأصغر لا يخرج من الملة ولا يحبط الأعمال، لكن ينقصها بحسبه، ويعرض صاحبها للوعيد.
2 ـ أن الكفر الأكبر يخلد صاحبه في النار، والكفر الأصغر إذا دخل صاحبه النار، فإنه لا يخلد فيها؛ وقد يتوب الله على صاحبه، فلا يدخله النار أصلًا.
3 ـ أن الكفر الأكبر يبيح الدم والمال، والكفر الأصغر لا يبيح الدم والمال.
4 ـ أن الكفر الأكبر يوجب العداوة الخالصة بين صاحبه وبين المؤمنين، فلا يجوز للمؤمنين محبته وموالاته ولو كان أقرب قريب، وأما الكفر الأصغر فإنهُ لا يمنع الموالاة مطلقًا، بل صاحبه يُحَبُّ ويُوالى بقدر ما فيه من الإيمان، ويبغض ويُعادى بقدر ما فيه من العصيان.

الفصل الرابع

النفاق: تعريفه، أنواعه

أ ـ تعريفه:

النفاق لغة: مصدر نافق، يُقال: نافق يُنافق نفاقًا ومنافقة، وهو مأخوذ من النافقاء: أحد مخارج اليربوع من جحره؛ فإنه إذا طلب من مخرج هرب إلى الآخر، وخرج منه، وقيل: هو من النفق وهو: السرب الذي يستتر فيه. [النهاية لابن الأثير (5/98) بمعناه.]

وأما النفاق في الشرع فمعناه: إظهارُ الإسلام والخير، وإبطانُ الكفر والشر؛ سمي بذلك لأنه يدخل في الشرع من باب، ويخرج منه من باب آخر، وعلى ذلك نبه الله تعالى بقوله: {إن المنافقين هم الفاسقون (67) }. [التوبة: 67.]

أي: الخارجون من الشرع.

وجعل الله المنافقين شرًا من الكافرين فقال: {إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار }. [النساء: 145.]

وقال تعالى: {إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم} [النساء: 142ـ]، {يخادعون الله والذين ءامنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون (9) في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضًا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون (10) }. [البقرة: 9، 10.]

ب ـ أنواع النفاق:

النفاق نوعان: النوع الأول: النفاقُ الاعتقادي: وهو النفاق الأكبر الذي يُظهر صاحبه الإسلام، ويُبطن الكفر، وهذا النوع مخرج من الدين بالكلية، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار، وقد وصف الله أهله بصفات الشر كلها: من الكفر وعدم الإيمان، والاستهزاء بالدين وأهله، والسخرية منهم، والميل بالكلية إلى أعداء الدين؛ لمشاركتهم لهم في عدواة الإسلام. وهؤلاء موجودون في كل زمان، ولا سيما عندما تظهر قوة الإسلام ولا يستطيعون مقاومتَه في الظاهر، فإنهم يظهرون الدخول فيه؛ لأجل الكيد له ولأهله في الباطن؛ ولأجل أن يعيشوا مع المسلمين ويَأمنوا على دمائهم وأموالهم؛ فيظهر المنافق إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به، لا يؤمن بالله، ولا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولًا للناس يهديهم بإذنه، وينذرهم بأسه ويخوفهم عقابه، وقد هتك الله أستار هؤلاء المنافين، وكشف أسرارهم في القرآن الكريم، وجلى لعباده أمورهم؛ ليكونوا منها ومن أهلها على حذر. وذكر طوائف العالم الثلاث في أول البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين، فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين،

وفي المنـافقين ثلاث عشـرة آيـة؛ لكـثرتهم وعمـوم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فـإن بلية الإسـلام بهم شـديدة جدًا، لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاتـه، وهم أعـداؤه في الحقيقــة، يخرجــون عداوته في كل قــالب يظن الجاهل أنه علم وإصــلاح، وهو غاية الجهل والفســاد. [من رســالة لابن القيم في بيان صفات المنافقين.]

وهذا النفاق ستة أنواع [مجموعة التوحيد النجدية صفحة (9).]:

1 ـ تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم.

2 ـ تكذيب بعض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

3 ـ بُغضُ الرسول صلى الله عليه وسلم.

4 ـ بغضُ بعض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

5 ـ المسرَّة بانخفاض دين الرسول صلى الله عليه وسلم.

6 ـ الكراهية لانتصار دين الرسول صلى الله عليه وسلم.

النــوع الثــاني: النفــاق العملي: وهو عمل شــيء من أعمــال المنافقين؛ مع بقاء الإيمان في القلب، وهـذا لا يُخـرج من الملـة، لكنه وسيلة إلى ذلك، وصاحبه يكونُ فيه إيمان ونفـاق، وإذا كـثر؛ صـارَ بسـببه منافقًا خالصًـا، والـدليل عليه قوله صـلى الله عليه وسـلم: " أربع من كن فيه كـان منافقًا خالصًـا، ومن كـانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصـلة من النفـاق حـتى يـدعها؛ إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غـدر، وإذا خاصم فجر ". [متفق عليه.]

فمن اجتمعت فيه هـذه الخصـال الأربـع، فقد اجتمع فيه الشـر، وخلصت فيه نعوت المنـافقين، ومن كـانت فيه واحـدة منها صـار فيه خصــلة من النفــاق، فإنه قد يجتمع في العبد خصــال خــير، وخصال شر، وخصال إيمـان، وخصـال كفر ونفـاق، ويسـتحق من الثواب والعقاب بحسب ما قام به من موجبات ذلك.

ومنـه: التكاسل عن الصـلاة مع الجماعة في المسـجد؛ فإنه من صـافت المنـافقين، فالنفـاق شـر، وخطـير جـدًا، وكـان الصـحابة يتخوفون من الوقوع فيه، قال ابن أبي مليكـة: (أدركت ثلاثين من أصـحاب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم كلهم يخـاف النفـاق على نفسه).

الفرق بين النفاق الأكبر والنفاق الأصغر:

1 ـ إن النفاق الأكبر يخرج من الملة، والنفاق الأصغر لا يخرج من الملة.

2 ـ إن النفاق الأكبر: اختلاف السر والعلانية في الاعتقاد، والنفاق الأصغر: اختلاف السر والعلانية في الأعمال دون الاعتقاد.



3 ـ إن النفاق الأكبر لا يصدر من مؤمن، وأما النفاق الأصـغر فقد يصدر من المؤمن.

4 ـ إن النفاق الأكـبر في الغـالب لا يتـوب صـاحبه، ولو تـاب فقد اختلف في قبول توبته عند الحـاكم. بخلاف النفـاق الأصـغر؛ فـإن صاحبه قد يتوب إلى الله، فيتوب الله عليه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية [انظر: كتـاب الإيمـان، صـفحة 238.]: (وكثـيرًا ما تعـرض للمؤمن شـعبة من شـعب النفـاق، ثم يتـوبُ الله عليـه، وقد يـرد على قلبه بعض ما يـوجب النفـاق، ويدفعه الله عنـه، والمـؤمن يبتلى بوسـاوس الشـيطان، وبوسـاوس الكفر الـتي يضـيق بها صدره، كما قال الصحابة: يا رسول الله، إن أحدنا ليجد في نفسه ما لئن يخر من السـماء إلى الأرض، أحب إليه من أن يتكلم بـه، فقال: " ذلك صريح الإيمان " [رواه أحمد ومسلم.]. وفي رواية: ما يتعـاظم أن يتكلم بـه، قـال: " الحمد لله الـذي رد كيـده إلى الوسوسة "، أي حصـول هـذا الوسـواس، مع هـذه الكراهة العظيمة، ودفعه عن القلب، هو من صريح الإيمان) انتهى.

وأما أهل النفاق الأكـبر، فقـال الله فيهم: {صم بكم عمي فهم لا يرجعـون (18)} [البقـرة: 18.]. أي: إلى الإسـلام في البـاطن، وقال تعالى فيهم: {أو لا يرون أنهم يفتنـون في كل عـام مـرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون (126) }. [التوبة: 126.]

قـال شـيخ الإسـلام ابن تيميـة: (وقد اختلف العلمـاءُ في قبـول تـوبتهم في الظـاهر؛ لكـون ذلك لا يُعلم، إذ هم دائمًا يظهـرون الإسلام). [انظر: مجموع الفتاوى (28/434 ـ 435).]

الفصل الخامس
بيان حقيقة كل من
الجاهلية ـ الفسق ـ الضلال ـ الردة: أقسامها، أحكامها
أ ـ الجاهلية:
هي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام؛ من الجهل بالله ورسله، وشرائع الدين، والمفاخرة بالأنساب، والكبر والتجبر، وغير ذلك [النهاية لابن الأثير (1/323).]، نسبة إلى الجهل الذي هو عدم العلم، أو عدم اتباع العلم، قال شيخُ الإسلام ابن تيمية: (فإن من لم يعلم الحق فهو جاهل جهلا بسيطًا، فإن اعتقد خلافه فهو جاهل جهلًا مركبًا، فإن قال خلاف الحق عالمًا بالحق، أو غير عالم، فهو جاهل أيضا، فإذا تبين ذلك فالناس قبل بعث الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا في جاهلية منسوبة إلى الجهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال، إنما أحدثه لهم جاهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال، إنما أحدثه لهم جاهل، وإنما يفعله جاهل، وكذلك كل ما يخالف ما جاء به المرسلون، من يهودية ونصرانية، فهو جاهلية، وتلك كانت الجاهلية العامة.
فأما بعد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم فقد تكون في مصر دون مصر، كما هي في دار الكفار، وقد تكونُ في شخصلى الله عليه وسلم دون شخصلى الله عليه وسلم، كالرجل قبل أن يسلم فإنه في جاهلية، وإن كان في دار الإسلام، فأما في زمان مطلق فلا جاهلية بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة، والجاهلية المقيدة قد توجد في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من الأشخاصلى الله عليه وسلم المسلمين، كما قال صلى الله عليه وسلم: " أربع في أمتي من أمر الجاهلية... " [رواه مسلم.] وقال لأبي ذر: " إنك امرؤ فيك جاهلية " [في الصحيحين.] ونحو ذلك) [اقتضاء الصراط المستقيم (1/255 ـــ 227) تحقيق الدكتور ناصر العقل.] انتهى.
وملخصلى الله عليه وسلم ذلك: أن الجاهلية: نسبة إلى الجهل، وهو عدم العلم، وأنها تنقسم إلى قسمين:
1 ـ الجاهلية العامة: وهي ما كان قبل مبعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقد انتهت ببعثته.
2 ـ جاهلية خاصة ببعض الدول، وبعض البلدان، وبعض الأشخاصلى الله عليه وسلم، وهذه لا تزال باقية، وبهذا يتضح خطأ من يُعمّمونَ الجاهلية في هذا الزمان فيقولون: جاهلية هذا القرن أو جاهلية القرن العشرين، وما شابه ذلك، والصواب أن

يُقالَ: جاهلية بعض أهل هذا القرن، أو غالب أهل هذا القرن؛ وأما التعميم فلا يَصحُّ ولا يجوزُ؛ لأنه ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم زالت الجاهلية العامة.
2 ـ الفسق:
الفسق لغة: الخروج، والمراد به شرعًا: الخروج عن طاعة الله، وهو يشمل الخروج الكلي، فيقالُ للكافر: فاسق، والخروج الجزئي؛ فيقال للمؤمن المرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب: فاسق.
فالفسق فسقان: فسق ينقل عن الملة، وهو الكفر، فيسمى الكافر فاسقًا، فقد ذكر الله إبليس فقال: {ففسق عن أمر ربه} [الكهف: 50.]، وكان ذلك الفسق منه كفرًا.
وقال الله تعالى: {وأما الذين فسقوا فمأواهم النار }، يريد الكفار، دل على ذلك قوله: {كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون (20) }. [السجدة: 20.]
ويسمى مرتكب الكبيرة من المسلمين: فاسقًا، ولم يخرجه فسقه من الإسلام، قال الله تعالى: {والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم أبدًا وأولئك هم الفاسقون (4) }. [النور: 4.]
وقال تعالى: {فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج }. [البقرة: 196.]
وقال العلماء في تفسير الفسوق هنا: هو المعاصي. [كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية صلى الله عليه وسلم 378.]
3 ـ الضلال:
الضلال: العدول عن الطريق المستقيم، وهو ضد الهداية، قال تعالى: {من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها }. [الإسراء: 15.]
والضلالُ يطلق على عدة معان:
1 ـ فتارةً يُطلقُ على الكُفر، قال تعالى: {ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدًا }. [النساء: 136.]
2 ـ وتارة يُطلقُ على الشرك، قال تعالى: {ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدًا (116) }. [النساء: 116.]
3 ـ وتارة يُطلقُ على المخالفة التي هي دون الكفر، كما يقال: الفرق الضالة: أي المخالفة.

4 ـ وتـارة يُطلق على الخطـأ، ومنه قـولُ موسى عليه السـلام: {فعلتها إذًا وأنا من الضالين (20) }. [الشعراء: 20.]

5 ـ وتـارةً يُطلــقُ على النسـيان، ومنه قوله تعـالى: {أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى }. [البقرة: 282.]

6 ـ ويُطلقُ الضلالُ على الضياع والغيبة، ومنه: ضالة الإبل. [صلى الله عليه وسلم 297 ـ 298 من المفردات للراغب.]

4 ـ الردة وأقسامها وأحكامها:

الـردة لغـة: الرجـوع، قـال تعـالى: {ولا ترتـدوا على أدبـاركم }. [المائدة: 21.]

أي: لا ترجعـوا، والـردة في الاصـطلاح الشـرعي هي: الكفر بعد الإسلام، قال تعالى: {ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كـافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخـرة وأولئك أصـحاب النـار هم فيها خالدون (217) }. [البقرة: 217.]

أقسـامها: الـردة تحصل بارتكـاب نـاقض من نـواقض الإسـلام، ونواقض الإسلام كثيرة ترجع إلى أربعة أقسام، هي:

1 ـ الردة بـالقول: كسـبِّ الله تعـالى، أو رسـوله صـلى الله عليه وسـلم، أو ملائكتـه، أو أحد من رسـله. أو ادّعـاء علم الغيب، أو ادّعاء النبوة، أو تصديق من يدعيها. أو دعاء غير الله، أو الاستعانة به فيما لا يقدر عليه إلا الله، والاستعاذة به في ذلك.

2 ـ الـردة بالفعـل: كالسـجود للصـنم والشـجر، والحجر والقبـور، والذبح لها. وإلقاء المصحف في المواطن القذرة، وعمل السحر، وتعلمه وتعليمه، والحكم بغير ما أنزل الله معتقدًا حله.

3 ـ الـردة بالاعتقـاد، كاعتقـاد الشـريك للـه، أو أن الزنا والخمر والربا حلال، أو أن الخبز حرام، وأن الصلاة غير واجبة، ونحو ذلك مما أجمع على حلـه، أو حرمته أو وجوبـه، إجماعًا قطعيًـا، ومثله لايجهله.

4 ـ الـردة بالشك في شـيء مما سـبق، كمن شك في تحـريم الشـرك، أو تحـريم الزنا والخمـر، أو في حل الخـبز، أو شك في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم أو رسالة غيره من الأنبيـاء، أو في صدقه، أو في دين الإسلام، أو في صلاحيته لهذا الزمان.

5 ـ الردة بالترك، كمن ترك الصـلاة متعمـدًا، لقـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم " بين العبد وبين الكفر والشـرك تـرك الصـلاة " [رواه مسلم.] وغيره من الأدلة على كفر تارك الصلاة.

وأحكامها التي تترتب عليها بعد ثبوتها هي:

1 ـ استتابة المرتد، فإن تـاب و رجـعَ إلى الإسـلام في خلال ثلاثة أيام؛ قبل منه ذلك و ترك.



2 ـ إذا أبى أن يتوبَ؛ و جب قتله؛ لقوله صـلى الله عليه و سـلم: " من بَدَّلَ دينه فاقتلوه ". [رواه البخاري و أبو داود.]
3 ـ يُمنع من التصرف في ماله في مدة استتابته، فإن أسـلم فهو له؛ و إلا صار فَيئًا لبيت المال، من حين قتله، أو موته على الردة. و قيل: من حين ارتداده يصرف في مصالح المسلمين.
4 ـ انقطاع التوارث بينه و بين أقاربه؛ فلا يرثهم و لا يرثونه.
5 ـ إذا ماتَ أو قُتلَ على ردته فإنَّه لا يُغسَّـلُ و لا يُصـلَّى عليه و لا يُـدفنُ في مقـابر المسـلمين، و إنما يُـدفَنُ في مقـابر الكفّـار، أو يُوارى في التراب في أي مكان غير مقابر المسلمين.

الباب الرابع

أقوال و أفعال تُنافي التوحيد أو تُنقِصُه

و فيه فصول:

الفصل الأول: ادعـاء علم الغيب في قـراءة الكف و الفنجـان، و التنجيم... إلخ.
الفصل الثاني: السحر و الكهانة و العرافة.
الفصل الثـالث: تقـديم القـرابين و النـذور و الهـدايا للمـزارات و القبور و تعظيمها.
الفصل الرابع: تعظيم التماثيل و النصب التذكارية.
الفصل الخامس: الاستهزاء بالدين و الاستهانة بحرماته.
الفصل السادس: الحكم بغير ما أنزل الله.
الفصل السابع: ادعاء حق التشريع و التحليل و التحريم.
الفصل الثـامن: الانتمـاء إلى المـذاهب الإلحاديـة، و الأحـزاب الجاهلية.
الفصل التاسع: النظرة المادية للحياة.
الفصل العاشر: التمائم و الرقى.
الفصل الحـادي عشـر: الحلف بغـير اللـه، و التوسل و الاسـتعانة بالمخلوق دون الله.

الفصل الأول

ادِّعاء علم الغيب في قراءة الكف و الفنجان و غيرهما

المراد بالغيب:

ما غاب عن الناس من الأمور المستقبلة و الماضية و ما لا يرونه، و قد اختصلى الله عليه وسلم الله تعالى بعلمه، و قال تعالى: {قل لا يعلم من في السماوات و الأرض الغيب إلا الله }. [النمل: 65.]

فلا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وحده، و قد يُطلع رسله على ما شاء من غيبه لحكمة و مصلحة، قال تعالى: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا (26) إلا من ارتضى من رسول }. [الجن: 26، 27.]

أي: لا يطلع على شيء من الغيب إلا من اصطفاه لرسالته، فيظهره على ما يشاء من الغيب؛ لأنه يُستدل على نبوته بالمعجزات؛ التي منها الإخبار عن الغيب؛ الذي يطلعه الله عليه، و هذا يعم الرسول الملكي و البشري، و لا يطلع غيرهما لدليل الحصر. فمن ادّعى علم الغيب بأي وسيلة من الوسائل غير من استثناه الله من رسله، فهو كاذب كافر؛ سواء ادّعى ذلك بواسطة قراءة الكف أو الفنجان، أو الكهانة أو السحر أو التنجيم، أو غير ذلك، و هذا الذي يحصل من بعض المشعوذين و الدجالين؛ من الإخبار عن مكان الأشياء المفقودة و الأشياء الغائبة، و عن أسباب بعض الأمراض، فيقولون: فلان عَمِلَ لَكَ كذا و كذا فمرضتَ بسببه، و إنما هذا لاستخدام الجن و الشياطين، و يظهرون للناس أن هذا يحصل لهم؛ عن طريق عمل هذه الأشياء من باب الخداع و التلبيس، قال شيخُ الإسلام ابن تيمية [انظر مجموعة التوحيد (797، 801).]: (و الكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين، يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع، و كانوا يَخلطون الصِّدقَ بالكذب) إلى أن قال: (و من هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمة فواكه و حلوى، و غير ذلك مما لا يكون في ذلك الموضع، و منهم من يطير به الجني إلى مكة أو بيت المقدس أو غيرهما) انتهى.

و قد يكون إخبارهم عن ذلك عن طريق التنجيم، و هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، كأوقات هُبوب الرياح و مجيء المطر، و تغير الأسعار، و غير ذلك من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بسير الكواكب في مجاريها، و اجتماعها و افتراقها. و يقولون: من تزوج بنجم كذا و كذا، حصل له كذا و كذا، و من سافر بنجم كذا حصل له كذا، و من وُلد بنجم



كذا و كـذا حصل له كـذا؛ من السـعود أو النحـوس، كما يعلن في بعض المجلات الساقطة من الخزعبلات حول البروج؛ و ما يجـري فيها من الحظوظ.

و قد يذهب بعضُ الجهال و ضعاف الإيمـان إلى هـؤلاء المنجمين؛ فيسألهم عن مستقبل حياته، و ما يجـري عليه فيـه، و عن زواجه و غير ذلك.

و من ادَّعى علم الغيب أو صَـدَّق من يَدَّعيـه، فهو مشـركٌ كـافر؛ لأنه يَدَّعي مشاركة الله فيما هو من خصائصه، و النجومُ مسـخَّرة مخلوقـة، ليس لها من الأمر شـيء، و لا تـدل على نحـوس، و لا سعود، و لا موت، و لا حياة، و إنما هذا كله من أعمال الشـياطين الذين يسترقون السمع.

الفصل الثاني

السحرُ و الكهانةُ و العِرافة

كل هذه الأمور أعمال شيطانية مُحرَّمة تخل بالعقيدة أو تناقضها؛ لأنها لا تحصل إلا بأمور شركية.

أ ـ فالسحرُ عبارةٌ عما خفي و لَطُفَ سبَبُهُ:

سُمِّي سِحْرًا؛ لأنه يحصل بـأمور خفيـة، لا تـدرك بالأبصـار، و هـو: عزائم و رقي، و كلام يتكلم به، و أدوية و تـدخينات، و له حقيقـة. و منه ما يؤثر في القلوب و الأبدان فيُمـرض و يَقتُل و يفـرق بين المـرء و زوجـه، و تـأثيره بـإذن الله الكـوني القَـدَريّ، و هو عمل شـيطاني، و كثـير منه لا يتوصل إليه إلا بالشـرك و التقـرب إلى الأرواح الخبيثة بما تحب، و التوصل إلى اسـتخدامها بالإِشـتراك بها؛ و لهذا قرنـهُ الشـارع بالشـرك، حيث يقـول النـبي صـلى الله عليه وسلم: " اجتنبوا السبعَ الموبقات " قالوا: و ما هي ؟ قال: " الإشراكُ بالله و السـحر... " [رواه البخـاري و مسـلم.] الحـديث.

فهو داخل في الشرك من ناحيتين:

الناحية الأولى: ما فيه من اسـتخدام الشـياطين، و التعلق بهم و التقرب إليهم بما يحبونـه؛ ليقومـوا بخدمة السـاحر، فالسِّـحرُ من تعليم الشياطين، قال تعالى: {و لكن الشـياطين كفـروا يعلمـون الناس السحر }. [البقرة: 102.]

الثانية: ما فيه من دعـوى علم الغيب، و دعـوى مشـاركة الله في ذلك، و هذا كفر و ضلال، قال تعالى: {و لقد علمـوا لمن اشـتراه ما له في الأخرة من خلاق} [البقرة: 102.]، أي: نَصيبٌ.

و إذا كان كذلك فلا شكَّ أنه كفر وشرك؛ يناقض العقيـدة، و يَجبُ قتل متعاطيـه، كما قتله جماعة من أكـابر الصـحابة رضي الله عنهم، و قد تسـاهل النـاس في شـأن السـاحر و السِّـحر، و رُبما عدوا ذلك فنًا من الفنون؛ التي يفتخرون بها، و يمنحـون أصـحابها الجوائز و التشـجيع، و يُقيمـون النـوادي و الحفلات و المسـابقات للسحرة، و يحضـرها آلاف المتفـرجين و المشـجعين، أو يسـمونه بالسـرك، و هـذا من الجهل بالـدين و التهـاون بشـأن العقيـدة، و تمكين للعابثين.

2 ـ الكهانة و العرافة:

و هما ادعـاء علم الغيب، و معرفة الأمـور الغائبـة، كالأخبـار بما سيقع في الأرض، و ما سيحصل، و أين مكان الشيء المفقـود؛ و ذلك عن طريق استخدام الشياطين الذين يسـترقون السـمع من السماء، كما قال تعالى: {هل أنبئكم على من تـنزل الشـياطين (



221) تنزل على كل أفاك أثيم (222) يلقون السمع و أكثرهم كاذبون (223) }. [الشعراء: 221: 223.]
و ذلك أن الشيطان يسترق الكلمة من كلام الملائكة، فيلقيها في أذن الكاهن، و يكذب الكاهن مع هذه الكلمة مائة كذبة، فيصدقه الناس بسبب تلك الكلمة، التي سمعت من السماء، و الله عز وجل هو المنفرد بعلم الغيب، فمن ادعى مشاركته في شيء من ذلك، بكهانة أو غيرها، أو صدق من يدعي ذلك؛ فقد جعل لله شريكًا فيما هو من خصائصه. و الكهانة لا تخلو من الشرك؛ لأنها تَقَرُّبٌ إلى الشياطين بما يحبون؛ فهي شرك في الربوبية من حيث ادعاء مشاركة الله في علمه، و شرك في الألوهية من حيث التقرب إلى غير الله بشيء من العبادة.
و عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: " من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه و سلم ". [رواه أبو داود.]
و مما يجب التنبيه عليه و التنبه له: أن السحرة و الكهان و العرافين، يعبثون بعقائد الناس بحيث يظهرون بمظهر الأطباء، فيأمرون المرضى بالذبح لغير الله؛ بأن يذبحوا خروفًا صفته كذا و كذا، أو دجاجة، أو يكتبون لهم الطلاسم الشركية، و التعاويذ الشيطانية بصفة حروز يعلقونها في رقابهم، أو يضعونها في صناديقهم، أو في بيوتهم.
و البعض الآخر يظهر بمظهر المخبر عن المغيبات، و أماكن الأشياء المفقودة؛ بحيث يأتيه الجهال فيسألونه عن الأشياء الضائعة، فيخبرهم بها أو يحضرها لهم، بواسطة عملائه من الشياطين. و بعضهم يظهر بمظهر الولي الذي له خوارق و كرامات أو بمظهر الفنان، كدخول النار و لا تؤثر فيه، و ضرب نفسه بالسلاح، أو وضع نفسه تحت عجلات السيارة و لا تؤثر فيه، أو غير ذلك من الشعوذات التي في حقيقتها سحر من عمل الشيطان، يجري على أيدي هؤلاء للفتنة. أو هي أمور تخيلية لا حقيقة لها؛ بل هي حيل خفية يتعاطونها أمام الأنظار، كعمل سحرة فرعون بالحبال و العصي.
قال شيخ الإسلام في مناظرته للسحرة البطائحية الأحمدية الرفاعية (قال: (يعني شيخ البطائحية) و رفع صوته: نحن لنا أحوال و كذا و كذا، و ادَّعى الأحوال الخارقة كالنار و غيرها و اختصاصهم بها، و أنهم يستحقون تسليم الحال إليها لأجلها). قال شيخ الإسلام: (فقلتُ و رفعتُ صوتي و غضبت: أنا أخاطب كل أحمدي من مشرق الأرض إلى مغربها: أي شيء فعلوه في النار



؟ ! فأنا أصنع مثل ما تصنعون، و من احـترق فهو مغلـوب، و ربما قلت: فعليه لعنة اللـــه، و لكن بعد أن نغسل جســـومنا بالخل و الماء الحار، فسألني الأمـراء و النـاس عن ذلـك؛ فقلت: لأن لهم حيلًا في الاتصال بالنار، يصنعونها من أشياء من دهن الضـفادع، و قشر النــارنج، و حجر الطلــق، فضج النــاس بــذلك؛ فأخذ يظهر القدرة على ذلـك، فقـال: أنا و أنت نُلَفتُّ في بارية بعد أن تُطلى جسومُنا بـالكبريت. فقلت: فقُم، و أخـذت أكـرر عليه في القيـام إلى ذلـك، فمـدَّ يـده يظهر خلع القميص، فقُلتُ: لا، حـتى تغتسل بالماء الحار والخل؛ فـأظهر الـوهم على عـادتهم فقـال: من كـان يحبُّ الأمير فيلحضر خشبًا ــ أو قـال: حزمة حطب ــ فقلتُ: هـذا تطويلٌ و تفريقٌ للجمع و لا يَحصـلُ به مقصـود؛ بل قنـديل يوقد و أُدخل أصـبعي و أصـبعك فيه بعد الغسـل، و من احـترقت أصـبعه فعليه لعنة الله، أو قلت: فهو مغلـوب، فلمَّا قلتُ ذلك تغـير وذل) انتهى. [مجموع الفتاوى (11/445 ـ 446).]

و المقصود منه بيان أن هؤلاء الدجالين يكذبون على النـاس بمثل هذه الحيل الخفية، كجرهم السـيارة بشـعرة و إلقائه نفسه تحت عجلاتها و إدخـــال أصـــياخ الحديد في عينـــه، إلى غـــير ذلك من الشعوذات الشيطانية.

الفصل الثالث

تقديم القرابين و النذور و الهدايا للمزارات و القبور و تعظيمها

لقد سد النبي صلى الله عليه و سلم كل الطرق المفضية إلى الشرك، و حذّر منها غاية التحذير، و من ذلك: مسألة القبور، قد وضع الضوابط الواقية من عبادتها، و الغلو في أصحابها، و من ذلك:

1 ـ أنه قد حذر صلى الله عليه و سلم من الغلو في الأولياء و الصالحين؛ لأن ذلك يؤدّي إلى عبادتهم، فقال: " إياكم و الغُلُوَّ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغُلُوَّ " [رواه الإمام أحمد و الترمذي و ابن ماجه.]، و قال: " لا تُطروني كما أطرتِ النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا: عبدُ الله و رسوله ". [رواه البخاري.]

2 ـ و حذر صلى الله عليه و سلم من البناء على القبور، كما روى أبو الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه و سلم ؟ أن لا تدع تمثالًا إلا طمسته، و لا قبرًا مشرفًا إلا سويته). [رواه مسلم.]

3 ـ و نهى عن تجصيصها و البناء عليها، عن جابر رضي الله عنه قال: (نهى رسول الله صلى الله عليه و سلم عن تجصيص القبر، و أن يقعد عليه، و أن يبني عليه بناء). [رواه مسلم.]

4 ـ وحذرصلى الله عليه و سلم من الصلاة عند القبور، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (لما نُزِلَ برسول الله صلى الله عليه و سلم طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال و هو كذلك: " لعنةُ الله على اليهود و النصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " يَحذرُ ما صنعوا، و لولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يُتَّخذَ مسجدًا). [متفق عليه.]

وقال صلى الله عليه و سلم: " ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبورَ مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك ". [رواه مسلم في صحيحه.]

واتخاذُها مساجد معناهُ: الصلاة عندها و إن لم يبن مسجد عليها؛ فكلُ موضع قصد للصلاة فيه فقد اتُّخذَ مسجدًا، كما قال صلى الله عليه و سلم: " جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا " [رواه البخاري.] فإذا بني عليها مسجد فالأمر أشد.

و قد خالف أكثر الناس هذه النواهي، و ارتكبوا ما حذر منه النبي صلى الله عليه و سلم، فوقعوا بسبب ذلك في الشرك الأكبر؛ فبنوا على القبور مساجد و أضرحة و مقامات، ، و جعلوها

مزارات تمارس عندها كل أنواع الشرك الأكبر، من الـذبح لهـا، و دعاء أصحابها، و الاستغاثة بهم، و صرف النذور لهم، و غير ذلك.
قـال العلامة ابن القيم رحمه اللـه: (و من جمع بين سـنة رسـول الله صلى الله عليه و سلم في القبور، و ما أمر به و نهى عنـه، و ما كان عليه أصحابه، و بين ما عليه أكثر الناس اليـوم [يعـني في وقته ــ رحمه الله ــ و قد زاد الأمر على ما ذكـر.]، رأى أحـدُهما مضادًا للآخر مناقضًا له؛ بحيث لا يجتمعان أبدًا؛ فنهى رسـول الله صـلى الله عليه و سـلم عن الصـلاة إلى القبـور، و هـؤلاء يبنـون عليها المساجد، و يسمونها مشاهد؛ مضـاهاة لـبيوت اللـه، و نهى عن إيقـاد السُـرُج عليهـا، و هـؤلاء يوقفـون الوقـوف على إيقـاد القناديلَ عليها، و نهى عن أن تُتَّخذَ عيدًا، و هؤلاء يتخـذونها أعيـادًا و مناسك، و يجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر.
و أمر بتسـويتها، كما روى مسـلم في صـحيحه عن أبي الهيـاج الأسـدي قـال: قـال لي علي بن أبي طـالب رضي الله عنـه: (ألا أبعثُكَ على ما بَعَثـني عليه رسـولُ الله صـلى الله عليه و سـلم ؟ أن لا تدع صورة إلا طمستها، و لا قبرًا إلا سوَّيته). و في صحيحه أيضًـا عن ثُمامَة بن شُـفيّ قـال: (كنا مع فضـالة بن عبيد بـأرض الروم، برودس فتوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسـوي، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يأمر بتسـويتها). [أي بعدم رفعها.]
و هــؤلاء يبــالغون في مخالفة هــذين الحــديثين، و يرفعونها عن الأرض كالبيت، و يعقدون عليها القباب).
إلى أن قــال: (فــانظر إلى هــذا التبــاين العظيم بين ما شــرعه رسول الله صلى الله عليه و سـلم وقصـده من النهي عما تقـدم ذكره في القبور، و بين ما شـرعه هـؤلاء و قصـدوه ؟ ! و لا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز العبد عن حصره).
ثم أخذ يذكر تلك المفاسد، إلى أن قال: (و منها: أن الذي شـرعه النـبي صـلى الله عليه و سـلم عند زيـارة القبـور إنما هو تـذكر الآخـرة، و الإحسـان إلى المـزور بالـدعاء لـه، و الـترحم عليه و الاستغفار، و سؤال العافية له؛ فيكون الزائر محسـنًا إلى نفسه و إلى الميت، فقلب هـؤلاء المشـركون الأمـر، و عكسـوا الـدين، و جعلوا المقصود بالزيارة: الشرك بالميت، و دعاءه و الدعاء بـه، و سـؤال حـوائجهم، و اسـتنزال البركـات منـه، و نصـره لهم على الأعداء و نحو ذلك؛ فصاروا مسـيئين إلى أنفسـهم، و إلى الميت، و لو لم يكن إلا بحرمانه بركة ما شـرعه تعـالى من الـدعاء له و

الترحم عليه و الاستغفار لـه) انتهى. [إغاثة اللهفـان (1 /ـ 214، 215، 217).]
و بهذا يتضح أن تقديم النذور و القـرابين للمـزارات شـرك أكـبر؛ سببه مخالفة هَدْي النبي صلى الله عليه و سـلم في الحالة الـتي يجب أن تكـــون عليها القبـــور؛ من عـــدم البنـــاء عليها و إقامة المســاجد عليهــا؛ لأنها لما بــنيت عليها القبــاب، و أقيمت حولها المساجد و المزارات، ظن الجهال أن المـدفونين فيها ينفعـون أو يضـرون، و أنهم يُغيثـون من اسـتغاث بهم، و يقضـون حـوائج من التجأ إليهم، فقدموا لهم النذور و القرابين؛ حتى صارت أوثانًا تُعبدُ من دون الله، و قد قال النبي صـلى الله عليه و سـلم: " اللهم لا تجعل قـــبري وثنًا يُعبد " [رواه مالك و أحمـــد.]، و ما دعا بهـــذا الـدعاء إلا لأنه سيحصل شــيء من ذلـك، و قد حصل عند القبـور في كثـير من بلاد الإسـلام، أما قـبره فقد حمـاه الله ببركة دعائه صلى الله عليه و سلم، و إن كـان قد يحصل في مسـجده شــيء من المخالفات، من بعض الجهال أو الخرافيين، لكنهم لا يقـدرون على الوصول إلى قبره؛ لأن قبره في بيته وليس في المسـجد، و هو محـوط بالجـدران، كما قـال العلامة ابن القيم رحمه الله في نونيته:

فأجاب ربُّ العالمين دعاءه و أحاطه بثلاثة الجدران

الفصل الرابع
في بيان حكم تعظيم التماثيل و النصب التذكارية
التماثيل جمع تمثال، و هو الصورة المجسمة على شكل إنسان أو حيوان، أو غيرهما مما فيه روح، و النصب في الأصل: العَلَمُ، و أحجار كان المشركون يذبحون عندها. و النُّصُبُ التذكارية: تماثيلٌ يُقيمونها في الميادين و نحوها؛ لإحياء ذكرى زعيم أو مُعظَّم.
و لقد حذر النبي صلى الله عليه و سلم من تصوير ذوات الأرواح، و لا سيما تصوير المعظَّمين من البشر كالعلماء و الملوك و العُبَّاد و القادة و الرؤساء، سواء كان هذا التصوير عن طريق رسم الصورة على لوحة أو ورقة، أو جدار أو ثوب، أو عن طريق الالتقاط بالآلة الضوئية المعروفة في هذا الزمان، أو عن طريق النحت، و بناء الصورة على هيئة التمثال، و نهى صلى الله عليه و سلم عن تعليق الصور على الجدران و نحوها، و عن نصب التماثيل، و منها: النصب التذكارية؛ لأن ذلك وسيلة إلى الشرك؛ فإن أول شرك حدث في الأرض كان بسبب التصوير و نصب الصور، و ذلك أنه كان في قوم نوح رجال صالحون، فلما ماتوا حزن عليهم قومهم، فأوحى إليهم الشيطان: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، و سموها بأسمائهم، ففعلوا و لم تُعبد؛ حتى إذا هلك أولئك و نُسي العلمُ؛ عُبدت [رواه البخاري.]. و لما بعث الله نبيه نُوحًا عليه السلام ينهى عن هذا الشرك الذي حصل بسبب تلك الصور التي نصبت، امتنع قومه من قبول دعوته، و أصروا على عبادة تلك الصور المنصوبة التي تحوّلت إلى أوثان: {و قالوا لا تذرن ءالهتكم ولا تذرن ودًا و لا سواعًا و لا يغوث و يعوق و نسرا (23) }. [نوح: 23.]
و هذه أسماء الرجال الذين صورت لهم تلك الصور على أشكالهم؛ إحياء لذكرياتهم، و تعظيمًا لهم.
فانظر ما آل إليه الأمر بسبب هذه الأنصاب التذكارية من الشرك بالله، و معاندة رسله ؟ ! مما سبب إهلاكهم بالطوفان، و مقتهم عند الله و عند خلقه [و شرك قوم إبراهيم كان بعبادة التماثيل و العكوف عندها، و الشرك في بني إسرائيل كان بعبادتهم صورة العجل التي عملها لهم السامري من الذهب، و شرك النصارى كان بعبادتهم الصليب الذي يزعمون أنه على صورة المسيح عليه السلام.]
، مما يدلك على خطورة التصوير و نصب الصور، و لهذا لعن النبي صلى الله عليه و سلم المصورين، و أخبر أنهم أشدُ الناس عذابًا يوم القيامة، و أمر بطمس الصور، وأخبر أن الملائكة لا



تـــدخل بيتًا فيه صـــورة، كل ذلك من أجل مفاســـدها، و شـــدة مخاطرها على الأمة في عقيــدتها، فــإنَّ أول شــرك حــدث في الأرض كان بسبب نصب الصُور، و سواء كان هـذا النصب للصـور و التماثيل في المجــالس، أو الميــادين أو الحــدائق؛ فإنه محــرم شرعًا؛ لأنه وسيلة إلى الشرك، و فساد العقيدة. و إذا كان الكفار اليومَ يعملون هذا العمل؛ لأنهم ليس لهم عقيدة يحافظون عليها؛ فإنه لا يجـوز للمسـلمين أن يتشـبهوا بهم و يشـاركوهم في هـذا العمـــل؛ حفاظًا على عقيـــدتهمم الـــتي هي مصـــدر قـــوتهم و سعادتهم. و لا يقـال: إن النـاس تجـاوزوا هـذه المرحلة و عرفـوا التوحيد و الشـــرك؛ لأن الشـــيطان ينظر للجيل المســـتقبل حينما يظهر فيهم الجهل، كما عمل مع قـوم نـوح لما مـات علمـاؤهم و فشا فيهم الجهــل، و لأن الحي لا تــؤمن عليه الفتنــة، كما قـــال إبراهيم عليه السـلام: {و اجنبـني و بـني أن نعبد الأصـنام (35)} فخاف على نفسه الفتنة، قـال بعض السـلف: (و من يـأمن البلاء بعد إبراهيم ؟).

الفصل الخامس

في بيان حكم الاستهزاء بالدين و الاستهانة بحرماته

الاستهزاء بالـدين ردة عن الإسـلام، و خـروج عن الـدين بالكليـة، قـال الله تعـالى: {قل أبالله وءاياته ورسـوله كنتم تسـتهزءون (65) لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم }. [التوبة: 65، 66.]

هـذه الآيـة: تـدل على أن الاسـتهزاء بالله كفـر، و أن الاسـتهزاء بالرسـول كفـر، و أن الاسـتهزاء بآيـات الله كفـر، فمن اسـتهزأ بواحد من هذه الأمور فهو مسـتهزئ بجميعهـا. و الـذي حصل من هـؤلاء المنـافقين: أنهم اسـتهزءوا بالرسـول و صـحابته؛ فـنزلت الآية.

فالاسـتهزاء بهـذه الأمـور متلازم، فالـذين يسـتخفون بتوحيد الله تعالى، و يعظمون دعاء غيره من الأموات؛ و إذا أمـروا بالتوحيد و نهوا عن الشرك استخفوا بذلك، كما قال تعـالى: {و إذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولًا (41) إن كـاد ليضـلنا عن ءالهتنا لولا أن صبرنا عليها }. [الفرقان: 41، 42.]

فاسـتهزءوا بالرسـول صـلى الله عليه وسـلم لما نهـاهم عن الشـرك، و ما زال المشـركون يعيبـون الأنبيـاء و يصـفهونهم بالسـفاهة و الضـلال و الجنـون، إذا دعـوهم إلى التوحيـد؛ لما في أنفسهم من تعظيم الشـرك. و هكـذا تجد من فيه شـبه منهم؛ إذا رأى من يدعو إلى التوحيد اسـتهزأ بـذلك؛ لما عنـده من الشـرك، قـال الله تعـالى: {و من النـاس من يتخذ من دون الله أنـدادًا يحبونهم كحب الله }. [البقرة: 165.]

فمن أحبَّ مخلوقًا مثل ما يُحب الله فهو مشـرك. و يجبُ الفـرق بين الحب في الله، و الحب مع الله، فهؤلاء الذين اتخـذوا القبـورَ أوثانًـا؛ تجـدهم يسـتهزئون بما هو من توحيد الله و عبادتـه، و يعظمون ما اتخـذوه من دون الله شـعفاء، و يَحلِـفُ أحـدُهم بالله اليمين الغموس كاذبًا، و لا يجترئ أن يحلف بشيخه كاذبًـا، و كثـير من طوائفَ متعددة ترى أحـدهم يـرى أن اسـتغاثته بالشـيخ ـ إما عند قبره أو غـير قـبره ـ أنفع له من أن يـدعو الله في المسـجد عن السَّـحَر ! و يسـتهزئ بمن يعـدل عن طريقته إلى التوحيـد، و كثير منهم يخربـون المسـاجد، و يعمـرون المشـاهد، فهل هـذا إلا من اسـتخفافهم بالله و بآياته و رسـوله، و تعظيمهم للشـرك [مجموع الفتاوى (15 /ـ 48، 49).] ؟ و هذا كثـير وقوعه في القبوريين اليوم.

و الاستهزاء على نوعين:



أحدهما: الاستهزاء الصريح، كالذي نزلت الآية فيـه، و هو قـولهم: ما رأينا مثل قرائنا هـؤلاء، أ رغب بطونًـا، و لا أكـذب ألسُـنًا، و لا أجبن عند اللقــاء. أو نحو ذلك من أقــوال المســتهزئين، كقــول بعضـهم: دينكم هـذا دينٌ خـامس، و قـول الآخـر: دينكم أخـرق، و قـول الآخر إذا رأى الآمـرين بـالمعروف، و النـاهين عن المنكـر: جاءكم أهل الدِّين، من باب السُـخرية بهم، و ما أشـبه ذلك مما لا يُحصى إلا بكلفة؛ مما هو أعظم من قول الذين نزلت فيهم الآية.

النوع الثاني: غير الصـريح، و هو البحر الـذي لا سـاحل لـه، مثـل: الرمز بـالعين، و إخـراج اللسـان، و مد الشـفة، و الغمز باليد عند تلاوة كتاب اللـه، أو سـنة رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، أو عند الأمر بـــــــالمعروف، و النهي عن المنكر [مجموعة التوحيد النجدية صفحة 409.]. و مثل هذا ما يقوله بعضـهم: إنَّ الإسـلام لا يَصلُحُ للقـرن العشـرين؛ و إنما يصـلح للقُـرون الوسـطى، وأنه تأخُّرٌ و رجعية، و أن فيه قسوة و وحشية؛ في عقوبـات الحـدود و التعـازير، و أنه ظلم المـرأة حقوقهـا؛ حيث أبـاح الطلاق، وتعـدد الزوجات. و قولهم: الحكمُ بالقوانين الوضعية أحسـنُ للنـاس من الحكم بالإسلام.

و يقولـون في الـذي يـدعو إلى التوحيـد، و يُنكر عبـادة القبـور و الأضرحة: هذا متطرف، أو يُريد أن يفـرق جماعة المسـلمين، أو: هذا وهَّابي، أو مذهب خامس، و ما أشبه هـذه الأقـوال الـتي كلها سب للدين و أهله، و استهزاء بالعقيـدة الصـحيحة، و لا حـول و لا قوة إلا بالله. و من ذلك: استهزاؤهم بمن تمسَّكَ بسنة من سـنن الرسول صلى الله عليه وسلم فيقولون: الدين ليس في الشَّـعرِ؛ استهزاءً بإعفاء اللحية، و ما أشبه هذه الألفاظ الوقحة.

الفصل السادس

الحكم بغير ما أنزل الله

من مقتضى الإيمـــان بالله تعــالى و عبادتـــه: الخضـــوع لحكمه و الرضا بشرعه، و الرجـوع إلى كتابه و سـنة رسـوله عند الاختلاف في الأقـــوال، و في العقائد و في الخصـــومات، و في الـــدماء و الأمـــوال، و ســائر الحقـــوق، فـــإنَّ الله هو الحكَمُ و إليه الحُكمُ، فيجبُ على الحكام أن يحكموا بما أنزل الله، و يجب على الرعيَّة أن يتحـاكموا إلى ما أنـزل الله في كتابـه، و سـنة رسـوله، قـال تعـالى في حق الـولاة: {إن الله يـأمركم أن تـؤدوا الأمانـات إلى أهلها وإذا حكمتم بين النـــاس أن تحكمـــوا بالعـــدل }. [النســـاء: 58.]

و قال في حق الرعية: {يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعــوا الرسول و أولي الأمر منكم فـإن تنـازعتم في شـيء فـردوه إلى الله و الرسـول إن كنتم تؤمنـون بالله و اليـوم الآخر ذلك خـير و أحسن تأويلا (59) }. [النساء: 59.]

ثمَّ بين أنه لا يجتمع الإيمـان مع التحـاكم إلى غـير ما أنـزل اللـه، فقال تعـالى: {ألم تر إلى الـذين يزعمـون أنهم ءامنـوا بما أنـزل إليك و ما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت و قد أمـروا أن يكفـروا به و يريد الشـيطان أن يضـلهم ضـلالا بعيـدًا (60)} [النسـاء: 60ـ]، إلى قوله تعـالى: {فلا وربك لا يؤمنـون حـتى يحكمـوك فيما شـجر بينهم ثم لا يجـدوا في أنفسـهم حرجًا مما قضيت و يسلموا تسليمًا (65) }. [النساء: 65.]

فنفى سُبحانه ـ نفيًا مؤكَّدًا بالقسم ـ الإيمانَ عمن لم يتحــاكم إلى الرسول صلى الله عليه وسـلم و يرضى بحكمه و يسـلم لـه، كما أنه حكم بكُفر الولاة الذين لا يحكمون بما أنزل الله، و بظلمهم و فسـقهم، قـال تعـالى: {و من لم يحكم بما أنـزل الله فأولئك هم الكافرون (44)} [المائدة: 44ـ]، {و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون (45)} [المائـدة: 45ـ]، {و من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون (47) }. [المائدة: 47.]

و لا بُدَّ من الحكم بما أنـزل اللـه، والتحـاكُم إليه في جميع مـواردِ النّزاع في الأقوال الاجتهادية بين العلمـاء، فلا يقبل منها إلا ما دل عليه الكتاب و السنة؛ من غير تعصب لمذهب، و لا تحيز لإمـام، و في المرافعات و الخصـومات في سـائر الحقـوق؛ لا في الأحـوال الشخصية فقط، كما في بعض الـدول الـتي تنتسب إلى الإسـلام، فإنَّ الإسلامَ كُلٌّ لا يتجزَّأ، قال تعالى: {يا أيها الذين ءامنوا ادخلوا في السلم كافة }. [البقرة: 208.]



و قـال تعـالى: {أفتؤمنـون ببعض الكتـاب و تكفـرون ببعض }. [البقرة: 85.]

و كذلك يجب على أتباع المذاهب و المناهج المعاصـرة أن يـردوا أقوال أئمتهم إلى الكتـاب و السـنة، فما وافقهما أخـذوا بـه، و ما خالفهما ردوه دون تعصب أو تحيز؛ و لا سـيما في أمـور العقيـدة، فإن الأئمة ـ رحمهم الله ـ يوصون بـذلك، و هـذا مـذهبهم جميعًـا، فمن خـالف ذلك فليس متبعًا لهم، و إن انتسب إليهم، و هو ممن قال الله فيهم: {اتخذوا أحبـارهم و رهبـانهم أربابًا من دون الله و المسيح ابن مريم }. [التوبة: 31.]

فليست الآية خاصة بالنصـــارى، بل تتنـــاول كل من فعل مثل فعلهم، فمن خـــالف ما أمر الله به و رســـوله، صـــلى الله عليه وسلم بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل اللـه، أو طلب ذلك اتباعًا لما يهواه و يريده؛ فقد خلع ربقة الإسـلام و الإيمـان من عنقـه، و إن زَعمَ أنه مـــؤمن، فـــإن الله تعـــالى أنكر على من أراد ذلـــك، وأكـذبهم في زعمهم الإيمـان؛ فقـال تعـالى: {ألم تر إلى الـذين يزعمون أنهم ءامنـوا بما أنـزل إليك و ما أنـزل من قبلك يريـدون أن يتحـــاكموا إلى الطـــاغوت و قد أمـــروا أن يكفـــروا به و يريد الشـيطان أن يضـلهم ضـلالا بعيـدا (60)} لما في ضـمن قولـه: (يزعمون) من نفي إيمانهم، فإنَّ (يزعمـون) إنما يقـال غالبًا لمن ادعى دعـــوى هو فيها كـــاذب، لمخالفته لموجبهـــا، و عمله بما ينافيها؛ يحقق هذا قوله: {وقد أمـروا أن يكفـروا به }؛ لأن الكفر الطـاغوت ركن التوحيـد، كما في آية البقـرة [يعـني قوله تعـالى: {فمن يكفر بالطـــاغوت و يـــؤمن بالله فقد استمسك بـــالعروة الوثقى} الآية (256) من سـورة البقـرة.]، فـإذا لم يَحصُـلْ هـذا الركن؛ لم يكن مُوحِّدًا، و التوحيدُ هو أساس الإيمـان الـذي تصـلح به جميع الأعمـــال، و تفسد بعدمـــه، كما أن ذلك بين في قولـــه: {فمن يكفر بالطـــاغوت و يـــؤمن بالله فقد استمسك بـــالعروة الوثقى} و ذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان بــه. [فتح المجيد صلى الله عليه وسلم 467 ـ 468.]

و نفي الإيمان عمن لم يحكم بما أنزل اللـه، يـدل على أن تحكيم شرع الله إيمان و عقيدة، و عبادة لله يجب أن يدين بها المسلم، فلا يحكم شـرع الله من أجل أن تحكيمه أصـلح للنـاس و أضـبط للأمن فقـط، فـإن بعض النـاس يركز على هـذا الجـانب، و ينسى الجانب الأول، و الله سـبحانه قد عـاب على من يحكم شـرع الله لأجل مصلحة نفسه، من دون تعبد لله تعالى بـذلك فقـال تعـالى: {و إذا دعـــوا إلى الله و رســـوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم

معرضون (48) و إن يكن لهم الحق يـأتوا إليه مـذعنين (49)ـ }. [النور: 48، 49.]
فهم لا يهتمون إلا بما يهـوون، و ما خـالف هـواهم أعرضـوا عنـه؛ لأنهم لا يتعبدون لله بالتحاكم إلى رسوله صلى الله عليه وسلم.
حكم من حكم بغير ما أنزل الله:
قـــال الله تعـــالى: {و من لم يحكم بما أنـــزل الله فأولئك هم الكافرون (44) }. [المائدة: 44.]
في هذه الآية الكريمة: أن الحكم بغـير ما أنـزل الله كفـر، و هـذا الكفر تارة يكون كفرًا أكـبر ينقل عن الملـة، و تـارة يكـون كفـرًا أصـغر لا يُخـرج من الملـة، و ذلك بحسب حـال الحـاكم، فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنــزل الله غـير واجب، و أنه مخـير فيـه، أو اســتهان بحكم اللـــه، و اعتقد أن غـــيره من القـــوانين و النظم الوضعية أحسن منه أو مساويًا له، أو أنه لا يصلح لهذا الزمـان، أو أراد بالحكم بغير ما أنزل الله استرضاءَ الكفار و المنافقين، فهـذا كفر أكـبر. و إن اعتقد وجـوبَ الحكم بما أنـزل اللـه، و علمه في هذه الواقعة و عدل عنه، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهـذا عاص، ويُسـمَّى كـافرًا كفـرًا أصـغر. و إن جهل حكم الله فيها مع بذل جهده، و اسـتفراغ وسـعه في معرفة الحكم، وأخطـأه، فهـذا مُخطئ له أجر على اجتهـاده، وخطـؤه مغفـور [شـرح الطحاوية صفحة 363 ـ 364.]. و هذا في الحكم في القضية الخاصة.
و أما الحكم في القضايا العامة فإنه يختلـف، قـال شـيخ الإسـلام ابن تيمية [مجموع الفتاوى (35 / 388).]: (فإنَّ الحاكم إذا كان دَيِّنـاُ؛ لكنَّهُ حكم بغـير علم؛ كـان من أهل النـار، و إن كـان عالمًا لكنه حكم بخلاف الحق الـذي يعلمــه؛ كـان من أهل النــار، و إذا حكم بلا عـدل و لا علم أَوْلَى أن يكـون من أهل النـار. و هـذا إذا حكم في قضية لشخص.
و أما إذا حكم حُكمًا عامًا في دين المسلمين؛ فجعل الحق بـاطلًا، و الباطل حقًا، و السنة بدعة، و البدعة سنة، و المعـروف منكـرًا، و المنكر معروفًا، و نهى عما أمر الله به و رسوله، و أمر بما نهى الله عنه و رسوله، فهـذا لـون آخر يَحْكُم فيه رب العـالمين، و إله المرسلين، مالك يوم الدين؛ الذي له الحمد في الأولى و الآخــرة: {له الحكم و إليه ترجعون }. [القصص: 88.]
{ هو الذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحق ليظهره على الـدين كله و كفى بالله شهيدًا (28)}). [الفتح: 28.]
و قال أيضًا: (لا ريبَ أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر، فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه



هو عدلًا من غير اتباع لما أنزل الله؛ فهو كافر، فإنهُ ما من أمة إلا و هي تأمر بـالحكم بالعـدل، و قد يكـون العـدل في دينها ما يـراه أكابرهم، بل كثير من المنتسبين إلى الإسـلام؛ يحكمـون بعـاداتهم التي لم ينزلها الله، كسواليف البادية (أي عادات من سلفهم)، و كانوا الأمراءَ المطاعين، و يرون أن هذا هو الـذي ينبغي الحكم به دون الكتـاب و السـنة، و هـذا هو الكفـر، فـإن كثـيرًا من النـاس أسـلموا؛ و لكن لا يحكمـون إلا بالعـادات الجاريـة؛ الـتي يـأمر بها المطاعون، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنــزل، فلم يلـتزموا ذلـك، بل اسْـتَحَلّوا أن يحكمـوا بخلاف ما أنـزل الله فهُم [منهاج السنة النبوية.] كفار) انتهى.

و قـال الشـيخ محمد بن إبـراهيم: (و أما الـذي قيل فيه أنه كفر دون كفر، إذا حاكم إلى غير الله مع اعتقـاد أنه عـاصٍ، و أنَّ حكم الله هو الحـق، فهـذا الـذي يصـدر منه المـرة و نحوهـا. أما الـذي جعل قـوانين بـترتيب و تخضـيع، فهو كُفـرٌ، و إن قـالوا: أخطأنا و حُكْمُ الشرع أعدل؛ فهذا كفر ناقل عن الملة). [في تقرير الشيخ محمد بن إبـراهيم آل الشـيخ. انظـر: مجمـوع فتـاواه (12 / 280).]

ففرَّقَ رحمه الله بينَ الحكم الجزئي الذي لا يتكـرر، و بين الحكم العام الذي هو المرجع في جميع الأحكام، أو غالبها، و قرر أن هذا الكفر ناقل عن الملة مطلقًـا؛ و ذلك لأن من نحى الشـريعة الإسلامية، و جعل القانون الوضعي بديلًا منها؛ فهذا دليل على أنه يرى أن القـانون أحسن و أصـلح من الشـريعة، و هـذا لا شك أنه كفر أكبر يُخرجُ من الملّة و يُناقضُ التوحيد.

الفصل السابع

ادعاء حق التشريع و التحليل و التحريم

تشريع الأحكام التي يسير عليها العباد في عباداتهم ومعاملاتهم وسائر شئونهم، و التي تفصل النزاع بينهم و تُنهي الخصومات، حق لله تعالى رب الناس، و خالق الخلق: {ألا له الخلق و الأمر تبارك الله رب العالمين (54) }. [الأعراف: 54.]

و هو الذي يعلم ما يصلح عباده، فيشرعه لهم، فبحكم ربوبيته لهم يشرِّعُ لهم، و بحكم عبوديتهم له يتقبلون أحكامه، و المصلحةُ في ذلك عائدة إليهم، قال تعالى: {فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله و الرسول إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الأخر ذلك خير و أحسن تأويلا (59) }. [النساء: 59.]

وقال تعالى: {و ما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي }. [الشورى: 10.]

واستنكر سُبحانه أنْ يتخذَ العباد مُشرِّعًا غيره فقال: {أم لهم شركاؤا شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله }. [الشورى: 21.]

فمن قبل تشريعًا غير تشريع الله؛ فقد أشرك بالله تعالى، و ما لم يشرعه الله و رسوله من العبادات؛ فهو بدعة، و كل بدعة ضلالة، قال صلى الله عليه وسلم: " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " [الحديث رواه البخاري و مسلم.]، وفي رواية: " من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد " [رواه مسلم.]

و مالم يشرعه الله و لا رسوله في السياسة والحكم بين الناس، فهو حكم الطاغوت، و حكم الجاهلية: {أفحكم الجاهلية يبغون و من أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون (50) }. [المائدة: 50.]

و كذلك التحليل و التحريم، حق لله تعالى، لا يجوز لأحدٍ أنْ يُشاركه فيه، قال تعالى: {و لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه و إنه لفسق و إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم و إن أطعتموهم إنكم لمشركون (121) }. [الأنعام: 121.]

فجعل سبحانه طاعة الشياطين و أوليائهم في تحليل ما حرم الله: شركًا به سبحانه، و كذلك من أطاع العلماء و الأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله؛ لقول الله تعالى: {اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابًا من دون الله و المسيح ابن مريم و ما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون (31) }. [التوبة: 31.]

و في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية على عَديّ بن حاتم الطائي ــ رضي الله عنه ــ فقال: يا رسول الله،



لسنا نعبُدُهم، قال صلى الله عليه وسـلم: " أليسَ يُحلـون لكم ما حرَّم الله فتُحلونه، و يحرمـون ما أحل الله فتحرمونه ؟ ! " قـال: بلى، قال النبي صـلى الله عليه وسـلم " فتلـكَ عبـادتُهم ". [رواه الترمذي و ابن جرير و غيرهما.]
فصارت طاعتهم في التحليل و التحريم من دون الله عبادة لهم و شركًا، وهو شرك أكبر ينافي التوحيد الذي هو مـدلول شـهادة أن لا إله إلا الله [فتح المجيد صلى الله عليه وسلم 107.]، فإن من مـدلولها: أن التحليل و التحـريم حق لله تعـالى، و إذا كـان هـذا فيمن أطاع العلماء و العباد في التحليل و التحـريم الـذي يخـالف شرع الله و هو يعلم هـذه المخالفـة، مع أنهم أقـرب إلى العلم و الدين، و قد يكونُ خطؤهم عن اجتهاد لم يصيبوا فيه الحق، و هم مأجورون عليه، فكيفَ بمن يُطيعُ أحكام القـوانين الوضـعية الـتي هي من صـنع الكفـار و الملحـدين، يجلبها إلى بلاد المسـلمين، و يحكم بها بينهم ؟ فلا حولَ و لا قوة إلا بالله.
إنَّ هذا قد اتخذ الكفار أربابًا من دون الله، يُشـرِّعونَ له الأحكـام، و يبيحونَ لهُ الحرام، و يحكمون بين الأنام.

الفصل الثامن

حكم الانتماء إلى المذاهب الإلحادية و الأحزاب الجاهلية

1 ـ الانتمـاء إلى المـذاهب الإلحادية كالشـيوعية، و العلمانيـة، و الرأسـمالية، و غيرها من مـذاهب الكفـر، ردة عن دين الإسـلام، فـإنْ كـانَ المنتمي إلى تلك المـذاهب يـدّعي الإسـلام، فهـذا من النفاق الأكبر، فإن المنافقين ينتمون إلى الإسـلام في الظـاهر، و هم مع الكفـار في البـاطن، كما قـال تعـالى فيهم: {و إذا لقــوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا و إذا خلوا إلى شـيطينهم قـالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون (14) }. [البقرة: 14.]

و قال تعالى: {الـذين يتربصـون بكم فـإن كـان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم و إن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نسـتحوذ عليمك و نمنعكم من المؤمنين }. [النساء: 141.]

فهؤلاء المنـافقون المخـادعون؛ لكل منهم وجهـان: وجـهٌ يَلقى به المؤمــــنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحـــــدين، و له لسـانان: أحـدُهما يقبله بظـاهره المسـلمون، و الآخر يُـترجم عن سِرّه المكنون: {و إذا لقـوا الـذين ءامنـوا قـالوا ءامنا و إذا خلـوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم و إنما نحن مستهزءون (14)}.

قد أعرضوا عن الكتاب و السنة؛ اسـتهزاءً بأهلهما و اسـتحقارًا، و أبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين، فرحًا بما عندهم من العلم الـذي لا ينفع الاستكثار منه إلا اشرًا و استكبارًا، فتراهم أبدًا بالمتمسـكين بصريح الوحي يستهزئون: [صفات المنافقين (رسـالة) صـلى الله عليه وسلم 19 لابن القيم، و الآية (15) من سورة البقرة.]

و قد أمر الله بالانتماء إلى المؤمنين: {يا أيها الذين ءامنـوا اتقـوا الله و كونوا مع الصادقين (119) }. [التوبة: 119.]

و هـذه المـذاهب الإلحادية مـذاهبُ متنـاحرة؛ لأنها مؤسسة على الباطـل، فالشـيوعية تنكر وجـود الخـالق ــ سـبحانه و تعـالى ــ و تحارب الأديان السماوية، و من يرضي لعقله أن يعيش بلا عقيدة، و ينكر البدهيات العقلية اليقينية، فيكون مُلغيًا لعقله ؟ و العلمانية تنكر الأديان، و تعتمدُ على المادية التي لا موجِّه لهـا، و لا غاية لها في هـــذه الحاية إلا الحيـــاة البهيمية ؟ و الرأســـمالية همها جمع المـــال من أي وجه و لا تتقيد بحلال و لا حـــرام، و لا عطف و لا شـفقة على الفقـراء و المسـاكين، و قـوام اقتصـادها على الرِّبا الذي هو محاربة لله و لرسوله؛ و الذي هو دمارُ الدول و الأفـراد، و امتصاصُ دماء الشعوب الفقيرة، و أي عاقل ــ فضـلًا عمن فيه ذرة من إيمان ـ يرضى أن يعيش على هـذه المـذاهب، بلا عقل و لا دين، و لا غاية صــحيحة من حياته يهــدف إليهـا، و يُناضل من

أجلها و إنما غـزت هـذه المـذاهبُ بلاد المسـلمين؛ لما غـاب عن أكثريتها الــدين الصــحيح، و تــرتب على الضــياع و عاشت على التبعية.
2 ـ و الانتماء للأحزاب الجاهلية، و القوميـات العنصـرية، هو الآخر كُفـرٌ وردَّة عن دين الإسـلام؛ لأنَّ الإسـلام يـرفض العصـبيات، و النعرات الجاهليـة، يقـول تعـالى: {يا أيها النـاس إنا خلقنـاكم من ذكر و أنـثى و جعلنـاكم شـعوبًا و قبائل لتعـارفوا إن أكـرمكم عند الله أتقاكم }. [الحجرات: 13.]
ويقــول النــبي صــلى الله عليه وســلم: " ليس منا من دعا إلى عصبية، و ليس منها من قاتل على عصبية، و ليس منا من غضب لعصبية ". [رواه الترمذي و غيره.]
و قــال صــلى الله عليه وســلم: " إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهليـة، و فخرها بالآبـاء، إنما هو مـؤمن تقي أو فـاجر شـقي، النــاس بنو آدم، و آدم خلق من تــراب، و لا فضل لعــربي على عجمي إلا بالتقوى ". [رواه مسلم.]
و هـذه الحزبيـات تفـرق المسـلمين، و الله قد أمر بالاجتمـاع و التعاون على البر و التقوى، و نهى عن التفرق و الاختلاف، و قال تعالى: {و اعتصموا بحبل الله جميعًا و لا تفرقـوا و اذكـروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعــداء فــألف بين قلــوبكم فأصــبحتم بنعمته إخوانًا }. [آل عمران: 103.]
إن الله سبحانه يريد منا أن نكون مع حزب واحـد، هم حـزب الله المفلحــون؛ و لكن العــالم الإســلامي أصــبح بعد ما غزته أوروبا سياسيًا، و ثقافيًا، يخضع لهـذه العصـبيات الدمويـة، و الجنسـية و الوطنيـة، و يـؤمن بها كقضـية علمية و حقيقية مقـررة، و واقع لا مفرَّ منه، و أصبحت شـعوبه تنـدفع انـدفاعًا غريبًا إلى إحيـاء هـذه العصبيات الـتي أماتها الإسـلام، و التغـني بها وإحيـاء شـعائرها، و الافتخار بعهدها الذي تقدم على الإسلام، و هو الـذي يلح الإسـلام على تسـميته بالجاهليـة، و قد من الله على المسـلمين بـالخروج عنها، و حثهم على شكر هذه النعمة.
و الطبيعي من المؤمن أن لا يذكر جاهلية تقادم عهدها أو قارب؛ إلا بمقت و كراهية و امتعـاض و اقشـعرار، و هل يـذكر السـجين المعذب الـذي يطلق سـراحه أيـام اعتقاله و تعذيبه و امتهانـه؛ إلا وعرته قشـعريرة ؟ و هل يـذكر الـبريء من علة شـديدة طويلة أشـرف منها على المـوت أيـام سـقمه، إلا و انكسف باله وانتقع لونه [من رسالة: (ردة و لا أبا بكر لها) لأبي الحسن الندوي.] ؟ و الــواجب أن يعلم أن هــذه الحزبيــات عــذاب؛ بعثه الله على من



أعرض عن شرعه، و تنكر لدينه، كما قال تعالى: {قل هو القــادر على أن يبعث عليكم عـــذابًا من فـــوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعًا و يذيق بعضكم بأس بعض }. [الأنعام: 65.]
و قال صلى الله عليه وسـلم: " و ما لم تحكم أئمتهم بكتـاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهمم ". [من حديث رواه ابن ماجه.]
إنَّ التعصب للحزبيــات، يســبب رفض الحق الــذي مع الآخــرين، كحــال اليهــود الــذين قــال الله فيهم: {و إذا قيل لهم ءامنــوا بما أنـزل الله قـالوا نـؤمن بما أنـزل علينا و يكفـرون بما وراءه و هو الحق مصدقًا لما معهم }. [البقرة: 91.]
و كحال أله الجاهلية، الذين رفضوا الحق الذي جاءهم به الرسول صــلى الله عليه وســلم تعصــبًا لما عليه آبــاؤهم: {و إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه ءاباءنا }. [البقــرة: 170.]
و يريد أصحاب هذه الحزبيات أن يجعلوها بديلة عن الإسلام الذي من الله به على البشرية.

الفصل التاسع

النظرية المادية للحياة و مفاسد هذه النظرية

هناك نظرتان للحياة، نظرة مادية للحياة، و نظرة صحيحة، و كل من النظرتين آثارها:

أ ـ فالنظرة المادية للحياة معناها:

أن يكون تفكير الإنسان مقصورًا على تحصيل ملذاته العاجلة، و يكون عمله محصورًا في نطاق ذلك، فلا يتجاوز تفكيره ما وراء ذلك من العواقب، و لا يعمل له، و لا يهتم بشأنه، و لا يعلم أن الله جعل هذه الحياة الدنيا مزرعة للآخرة، فجعل الدنيا دار عمل، و جعل الآخرة دار جزاء، فمن استغل دنياه بالعمل الصالح ربح الدارين، و من ضيع دنياه ضاعت آخرته: {خسر الدنيا و الآخرة ذلك هو الخسران المبين (11) }. [الحج: 11.]

فالله لم يخلق هذه الدنيا عبثًا بل خلقها لحكمة عظيمة، قال تعالى: {الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملًا }. [الملك: 2.]

و قال تعالى: {إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملًا (7) }. [الكهف: 7.]

أوجد سبحانه في هذه الحياة من المتع العاجلة، و الزينة الظاهرة من الأموال و الأولاد، و الجاه والسلطان، و سائر المستلذات، ما لا يعلمه إلا الله.

فمن الناس ــ و هم الأكثر ــ من قصر نظره على ظاهرها و مفاتنها، و متع نفسه بها، و لم يتأمل في سرها، فانشغل بتحصيلها و جمعها و التمتع بها عن العمل لما بعدها؛ بل ربما أنكر أن يكون هناك حياة غيرها، كما قال تعالى: {و قالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا و ما نحن بمبعوثين (29) }. [الأنعام: 29.]

و قد توعد الله تعالى من هذه نظرته للحياة؛ فقال تعالى: {إن الذين لا يرجون لقاءنا و رضوا بالحياة الدنيا و اطمأنوا بها و الذين هم عن ءاياتنا غافلون (7) أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون (8) }. [يونس: 7، 8.]

و قال تعالى: {من كان يريد الحياة الدنيا و زينتها نوف إليهم أعمالهم فيها و هم فيها لا يبخسون (15) أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار و حبط ما صنعوا فيها و باطل ما كانوا يعملون }. [هود: 15، 16.]

و هذا الوعيد يشمل أصحابَ هذه النظرة؛ سواء كانوا من الذين يعملون عمل الآخرة؛ يريدون به الحياة الدنيا، كالمنافقين و المرائيين بأعمالهم، أو كانوا من الكفار الذين لا يؤمنون ببعث و

لا حساب، كحال أهل الجاهلية و المـذاهب الهدامة من رأسـمالية و شيوعية، و علمانية إلحادية، و أولئك لم يعرفوا قدر الحياة، و لا تعدو نظـرتهم لها أن تكـون كنظـرة البهـائم، بل هم أضل سـبيلا؛ لأنهم ألغوا عقولهم، و سخروا طاقاتهم، و ضـيعوا أوقـاتهم فيما لا يبقى لهم، و لا يبقون له، و لم يعملوا لمصيرهم الذي ينتظـرهم و لابد لهم منه.

و البهـائم ليس لها مصـير ينتظرهـا، و ليس لها عقـول تفكر بهـا، بخلاف أولئك، و لهذا يقـول تعـالى فيهم: {أم تحسب أن أكـثرهم يسـمعون أو يعقلـون إن هم إلا كالأنعـام بل هم أضل سـبيلًا (44) }. [الفرقان: 44.]

و قد وصف الله أهل هذه النظرة بعدم العلم، قـال تعـالى: {وعد الله لا يخلف الله وعده و لكن أكثر الناس لا يعلمون (6) يعلمـون ظـاهرًا منن الحيـاة الـدنيا و هم عن الأخـرة هم غـافلون (7)ـ }. [الروم: 6، 7.]

فهم و إن كـانوا أهل خـبرة في المخترعـات و الصـناعات؛ فهم جهـال لا يسـتحقون أن يوصـفوا بـالعلم، لأن علمهم لم يتجـاوز ظاهر الحياة الدنيا، و هذا علم ناقص لا يستحق أصحابه أن يطلق عليهم هـذا الوصف الشـريف، فيقـال: العلمـاء، و إنما يطلق هـذا على أهل معرفة الله و خشيته، كما قال تعالى: {إنما يخشى الله من عباده العلماء }. [فاطر: 28.]

و من النظرة المادية للحياة الدنيا: ما ذكره الله في قصة قارون، و ما آتاه الله من الكنوز: {فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الـدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قـارون إنه لـذو حظ عظيم (79) }. [القصص: 79.]

فتمنـوا مثله و غبطـوه، و وصـفوه بالحظ العظيم؛ بنـاء على نظرتهم المادية، و هذا كما هو الحـال الآن في الـدول الكـافرة، و ما عندها من تقدم صناعي و اقتصادي، فـإن ضـعاف الإيمـان من المسلمين ينظرون إليهم نظرة إعجاب دون نظر إلى ما هم عليه من الكفر، و ما ينتظرهم من سوء المصير، فتبعثهم هذه النظـرة الخاطئة إلى تعظيم الكفـار و احـترامهم في نفوسـهم، و التشـبه بهم في أخلاقهم و عـاداتهم السـيئة، و لم يقلـدوهم في الجد و إعداد القـوة و الشـيء النـافع من المخترعـات و الصـناعات، كما قـال تعـالى: {و أعـدوا لهم ما اسـتطعتم من قـوة }. [الأنفـال: 60.]

ب ـ النظرة الثانية للحياة: النظرة الصحيحة:



و هي: أن يعتبر الإنسان ما في هذه الحياة من مـال و سـلطان و قوى مادية: وسيلة يستعان بها لعمل الآخرة.
فالدنيا في الحقيقة لا تذم لذاتها، و إنما يتوجه المـدح و الـذم إلى فعل العبد فيها، فهي قنطرة و معبر للآخـرة، و منها زادُ الجنـة، و خير عيش يناله أهل الجنة إنما حصل لهم بما زرعوه في الدنيا.
فهي دار الجهاد، و الصلاة والصـيام، و الإنفـاق في سـبيل اللـه، و مضمار التسابق إلى الخيرات.
يقول الله تعـالى لأهل الجنـة: {كلـوا و اشـربوا هنيئًا بما أسـلفتم في الأيام الخالية (24)} [الحاقة: 24.] يعني: الدنيا.

الفصل العاشر
في الرقي و التمائم
أ ـ الرقى:
جمع رُقية، و هي: العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمى و الصرع، و غير ذلك من الآفات، و يسمونها العزائم، و هي على نوعين:
النوع الأول: ما كان خاليًا من الشرك، بأن يقرأ على المريض شيء من القرآن، أو يعوذ بأسماء الله و صفاته، فهذا مباح، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد رقى و أمر بالرقية و أجازها، فعن عوف ابن مالك قال: كنا نرقي في الجاهلية فقلنا: يا رسول الله، كيف ترى في ذلك ؟ فقال: " اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا ". [رواه مسلم.]
قال السيوطي: و قد أجمع العلماء على جواز الرقى، عند اجتماع ثلاثة شروط: أن تكون بكلام الله، أو بأسماء الله و صفاته، و أن تكون باللسان العربي، و ما يعرف معناه، و أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله تعالى [فتح المجيد صلى الله عليه وسلم 135ـ]، و كيفيتها: أن يقرأ و ينفث على المريض، أو يقرأ في ماء ويسقاه المريض، كما جاء في حديث ثابت بن قيس: (أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ ترابًا من بطحان، فجعله في قدح، ثم نفث عيله بماء و صبه عليه). [رواه أبو داود.]
النوع الثاني: ما لم يخل من الشرك: و هي الرقى التي يستعان فيها بغير الله، من دعاء غير الله و الاستغاثة و الاستعاذة به، كالرقى بأسماء الجن، أو بأسماء الملائكة و الأنبياء و الصالحين، فهذا دعاء لغير الله، و هو شرك أكبر. أو يكون بغير اللسان العربي، أو بما لا يعرف معناه، لأنه يخشى أن يدخلها كفر أو شرك و لا يعلم عنه، فهذا النوع من الرقية ممنوع.
2 ـ التمائم:
و هي جمع تميمة، و هي: ما يعلق بأعناق الصبيان؛ لدفع العين، و قد يعلق على الكبار من الرجال و النساء، و هو على نوعين:
النوع الأول متن التمائم:
ما كان من القرآن؛ بأن يكتب آيات من القرآن أو من أسماء الله و صفاته، و يعلقها للاستشفاء بها؛ فهذا النوع قد اختلف فيه العلماء في حكم تعليقه على قولين:
القول الأول: الجواز: و هو قول عبد الله بن عمرو بن العاص، و هو ظاهر ما روى عن عائشة، و به قال أبو جعفر الباقر، و أحمد



بن حنبل في رواية عنـه، و حملـوا الحـديث الـوارد في المنع من تعليق التمائم، على التمائم التي فيها شرك.
القــول الثــاني: المنع من ذلــك، و هو قــول ابن مســعود و ابن عباس، و هو ظاهر قـول حذيفة و عقبة بن عـامر، و ابن عكيم، و به قال جماعة من التـابعين، منهم: أصـحاب ابن مسـعود، و أحمد في رواية اختارها كثــير من أصــحابه، و جــزم بها المتــأخرون، و احتجوا بما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال: سـمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقـول: " إن الـرقى و التمـائم و التولة شرك ". [رواه أحمد و أبو داود و ابن ماجه و الحاكم.]
و التولة: شيء يصنعونه، يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجهـا، و الرجل إلى امرأته.
و هذا هو الصحيح؛ لوجوه ثلاثة:
الأول: عموم النهي و لا مخصص للعموم.
الثاني: سد الذريعة فإنها تفضي إلى تعليق ما ليس مباحًا.
الثـالث: أنه إذا علق شـيئًا من القـرآن، فقد يمتهنه المعلق بحمله معه في حال قضاء الحاجة و الاسـتنجاء و نحو ذلـك. [فتح المجيد صلى الله عليه وسلم 136.]
النوع الثاني من التمائم:
الــتي تعلق على الأشـخاص ما كـان من غـير القـرآن، كـالخرز و العظــام و الــودع و الخيــوط و النعــال و المســامير، و أســماء الشـياطين و الجن و الطلاسـم، فهـذا محـرم قطعًـا، و هو من الشـرك؛ لأنه تعلق على غـير الله سـبحانه وأسـمائه و صـفاته و آياتـه، و في الحـديث: " من تعلق شـيئًا وكل إليه " [رواه أحمد و الترمذي.] أي: وكله الله إلى ذلك الشيء الذي تعلقه، فمن تعلق بالله، و التجأ إليه، و فوض أمره إليه؛ كفاه، و قرب إليه كل بعيد، و يسر له كل عسير. و من تعلق بغيره من المخلـوقين و التمـائم و الأدوية و القبور؛ و كله الله إلى ذلك الذي لا يغـني عنه شـيئًا، و لا يملك له ضرًا و لا نفعًا، فخسر عقيدته و انقطعت صـلته بربه و خذله الله.
و الواجب على المسـلم: المحافظة على عقيدته مما يفسـدها أو يخل بهـا، فلا يتعــاطى ما لا يجــوز من الأدويــة، و لا يــذهب إلى المخــرفين و المشـعوذين ليتعـالج عنـدهم من الأمـراض؛ لأنهم يمرضون قلبه و عقيدته، و من توكل على الله كفاه.
و بعض النــاس يعلق هــذه الأشــياء على نفســه، و هو ليس فيه مرض حسي، و إنما فيه مـرض وهمي، و هو الخـوف من العين و الحسد، أو يعلقها على سيارته أو دابته أو باب بيته أو دكانه. وهـذا



كله من ضـعف العقيـدة، و ضـعف توكله على اللـه، و إن ضـعف العقيدة هو المرض الحقيقي الـذي يجب علاجه بمعرفة التوحيد و العقيدة الصحيحة.



الفصل الحادي عشر

في بيان حكم الحلف بغير الله و التوسل و الاستغاثة و الاستعانة بالمخلوق

أ ـ الحلف بغير الله:

الحلف: هو اليمين، و هي: توكيد الحكم بذكر معظم على وجه الخصوص. و التعظيم: حق لله تعالى، فلا يجوز الحلف بغيره، فقد أجمع العلماء على أن اليمين لا تكون إلا بالله، أو بأسمائه و صفاته، و أجمعوا على المنع من الحلف بغيره [حاشية ابن قاسم على كتاب التوحيد صلى الله عليه وسلم 303ـ]، و الحلف بغير الله شرك؛ لما روى ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك " [رواه أحمد و الترمذي و الحاكم.] و هو شرك أصغر، إلا إذا كان المحلوف به معظما عند الحالف إلى درجة عبادته له فهذا شرك أكبر، كما هو الحال اليوم عند عباد القبور، فإنهم يخافون من يعظمون من أصحاب القبور، أكثر من خوفهم من الله و تعظيمه، بحيث إذا طلب من أحدهم أن يحلف بالولي الذي يعظمه؛ لم يحلف به إلا إذا كان صادقًا، و إذا طلب منه أن يحلف بالله؛ حلف به و إن كان كاذبًا.

فالحلف تعظيم للمحلوف به لا يليق إلا بالله، و يجب توقير اليمين؛ فلا يكثر منها، قال تعالى: {و لا تطع كل حلاف مهين (10). [القلم: 10.]

و قال تعالى: {و احفظوا أيمانكم }. [المائدة: 89.]

أي: لا تحلفوا إلا عند الحاجة، و في حالة الصدق و البر؛ لأن كثرة الحلف أو الكذب فيها يدلان على الاستخفاف بالله، و عدم التعظيم له، و هذا ينافي كمال التوحيد، و في الحديث أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ثلاثة لا يكلمهم الله و لا يزكيهم، و لهم عذاب أليم " و جاء فيه: " و رجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه، و لا يبيع إلا بيمينه " [رواه الطبراني بسند صحيح.]. فقد شدد الوعيد على كثرة الحلف، مما يدل على تحريمه احترامًا لاسم الله تعالى، و تعظيمًا له سبحانه.

و كذلك يحرم الحلف بالله كاذبًا و هي: اليمين الغموس [هي التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار، و هي التي يحلفها على أمر ماض كاذبًا عالمًا.]، و قد وصف الله المنافقين بأنهم يحلفون على الكذب و هم يعلمون.

فتلخص من ذلك:

1 ـ تحريم الحلف بغـير الله تعـالى، كـالحلف بالأمانة أو الكعبة أو النبي صلى الله عليه وسلم و أن ذلك شرك.
2 ـ تحريم الحلف بالله كاذبًا متعمدًا، و هي الغموس.
3 ـ تحريم كثرة الحلف بالله ـ و لو كان صـادقًا ــ إذا لم تـدعُ إليه حاجة؛ لأن هذا استخفاف بالله سبحانه.
4 ـ جواز الحلف بالله إذا كان صادقًا، و عند الحاجة.
ب ـ التوسل بالمخلوق إلى الله تعالى:
التوسـل: هو التقـرب إلى الشـيء و التوصل إليـه، و الوسـيلة: القربـة، قـال الله تعـالى: {و ابتغـوا إليه الوسـيلة }. [المائـدة: 35.]
أي القربة إليه سبحانه بطاعته، و اتباع مرضاته.
و التوسل قسمان:
القسم الأول: توسل مشروع، و هو أنواع:
1 ـ النـوع الأول: التوسل إلى الله تعـالى بأسـمائه و صـفاته، كما أمر الله تعالى بذلك في قوله: {و لله الأسـماء الحسـنى فـادعوه بها و ذروا الذين يلحدون في أسمائه سـيجزون ما كـانوا يعلمـون }. [الأعراف: 180.]
2 ـ النـوع الثـاني: التوسل إلى الله تعـالى بالإيمـان و الأعمـال الصالحة التي قام بها المتوسل، كما قال تعالى عن أهل الإيمـان: {ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادي للإيمـان أن ءامنـوا بـربكم فامنا ربنا فـاغفر لنا ذنوبنا و كفر عنا سـيئاتنا و توفنا مع الأبـرار (193)ـ }. [آل عمران: 193.]
و كما في حـديث الثلاثة الـذين انطبقت عليهم الصـخرة، فسـدت عليهم بـاب الغـار، فلم يسـتطيعوا الخـروج، فتوسـلوا إلى الله بصـالح أعمـالهم؛ ففـرج الله عنهم [هـذا مضـمون الحـديث و هو متفق عليه.] فخرجوا يمشون.
3 ـ النـوع الثـالث: التوسل إلى الله تعـالى بتوحيـده؛ كما توسل يـونس عليه السـلام: {فنـادى في الظلمـات أن لا إله إلا أنت سبحانك }. [الأنبياء: 87.]
4 ـ النوع الرابع: التوسل إلى الله تعالى بإظهار الضعف و الحاجة و الافتقـار إلى اللـه، كما قـال أيـوب عليه السـلام: {أني مسـني الضر و أنت أرحم الراحمين (83) }. [الأنبياء: 83.]
5 ـ النوع الخامس: التوسل إلى الله بدعاء الصالحين الأحياء، كما كان الصحابة إذا أجدبوا طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يـدعو الله لهم، و لما تـوفي صـاروا يطلبـون من عمه العبـاس ــ رضي الله عنه ـ فيدعو لهم. [رواه البخاري.]



6 ـ النـوع السـادس: التوسل إلى الله بـالاعتراف بالـذنب: {قـال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي }. [القصص: 16.]

القسم الثاني: توسل غير مشروع:

و هو التوسل بما عـدا الأنـواع المـذكورة في التوسل المشـروع، كالتوسل بطلب الدعاء و الشفاعة من الأمـوات، و التوسل بجـاه النــبي صـلى الله عليه وسـلم، و التوسل بــذات المخلــوقين أو حقهم، و تفصيل ذلك كما يلي:

1 ـ طلب الدعاء من الأموات لا يجوز:

لأن الميت لا يقدر على الدعاء، كما كان يقدر عليه في الحيــاة، و طلب الشــفاعة من الأمــوات لا يجــوز؛ لأن عمر بن الخطــاب و معاوية بن أبي سفيان ــ رضي الله عنهما ـ، و من بحضـرتهما من الصحابة و التابعين لهم بإحسان، لما أجدبوا استسقوا و توسلوا و استشــفعوا بمن كــان حيًــا، كالعبــاس و كيزيد بن الأســود، و لم يتوسلوا و لم يستشـفعوا و لم يستسـقوا بـالنبي صـلى الله عليه وسلم لا عند قبره و لا عند غيره، بل عدلوا إلى البدل كالعباس و كيزيد، و قد قال عمر: (اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، و إنا نتوسل بعم نبينا فاسقنا) فجعلوا هـذا بـدلًا من ذلـك، لما تعـذر أن يتوسلوا به على الوجه المشروع الذي كانوا يفعلونه.

و قد كان منن الممكن أن يـأتوا إلى قـبره فيتوسـلوا به [مجمـوع الفتاوى (1 / 318 ـ 319).]، يعني: لو كان جائزًا. فتركهم لذلك دليل على عـــدم جـــواز التوسل بـــالأموات، لا لطلب الــدعاء و الشـــفاعة منهم و هم أمـــوات، فلو كـــان طلب الــدعاء منه و الاستشفاع به حيًا و ميتًا سواء؛ لم يعدلوا عنه إلى غـيره ممن هو دونه.

2 ـ و التوسل بجاه النبي صلى الله عليه وسـلم أو بجـاه غـيره لا يجوز:

و الحديث الذي فيه: (إذا سألتم الله فاسألوه بجاهي، فإن جــاهي عند الله عظيم) حـــديث مكـــذوب، ليس في شـــيء من كتب المســـلمين الـــتي يعتمد عليهـــا، و لا ذكـــره أحد من أهل العلم بالحديث [مجموع الفتاوى (10 / 319)ـ]، و مادام لا يصح فيه دليل، فهو لا يجوز؛ لأن العبادات لا تثبت إلا بدليل صريح.

3 ـ والتوسل بذوات المخلوقين لايجوز:

لأنه إن كانت الباء للقسـم، فهو إقسـام به على الله تعـالى، و إذا كان الإقسام بـالمخلوق على المخلـوق لا يجـوز، و هو شـرك كما في الحديث؛ فكيف بالإقسام بالمخلوق على الخــالق جل و علا ؟ !



و إن كانت الباء للسببية فالله سبحانه لم يجعل السؤال بالمخلوق سببًا للإجابة، و لم يشرعه لعباده.
4 ـ و التوسل بحق المخلوق لا يجوز لأمرين:
الأول: أن الله سبحانه لا يجب عليه حق لأحد، و إنما هو الذي يتفضل سبحانه على المخلوق بذلك، كما قال تعالى: {و كان حقا علينا نصر المؤمنين (47) }. [الروم: 47.]
فكون المطيع يستحق الجزاء، هو استحقاق فضل و إنعام، و ليس هو استحقاق مقابلة كما يستحق المخلوق على المخلوق.
الثاني: أن هذا الحق الذي تفضل الله به على عبده هو حق خاص به، لا علاقة لغيره به، فإذا توسل به غير مستحقه كان متوسلًا بأمر أجنبي، لا علاقة له به، و هذا لا يجديه شيئًا.
و أما الحديث الذي فيه: " أسألك بحق السائلين " فهو حديث لم يثبت؛ لأن في إسناده عطية العوفي، و هو ضعيف مجمع على ضعفه، كما قال بعض المحدثين، و ما كان كذلك، فإنه لا يحتج به في هذه المسألة المهمة من أمور العقيدة، ثم إنه ليس فيه توسل بحق شخص معين، و إنما فيه التوسل بحق السائلين عمومًا، و حق السائلين الإجابة كما و عدهم الله بذلك.
وهو حق أوجبه على نفسه لهم، لم يوجبه عليه أحد، فهو توسل إليه بوعده الصادق لا بحق المخلوق.
جـ ـ حكم الاستعانة و الاستغاثة بالمخلوق:
الاستعانة: طلب العون و المؤازرة في الأمر.
و الاستغاثة: طلب الغوث، و هو إزالة الشدة.
فالاستغاثة و الاستعانة بالمخلوق على نوعين:
النوع الأول: الاستعانة و الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه، و هذا جائز، قال تعالى: {و تعاونوا على البر و التقوى }. [المائدة: 2.]
و قال تعالى في قصة موسى عليه السلام:
{ فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه }. [القصص: 15.]
و كما يستغيث الرجل بأصحابه في الحرب و غيرها، مما يقدر عليه المخلوق.
النوع الثاني: الاستغاثة و الاستعانة بالمخلوق؛ فيما لا يقدر عليه إلا الله، كالاستغاثة و الاستعانة بالأموات، و الاستغاثة بالأحياء، و الاستعانة بهم فيما لا يقدر عليه إلا الله من شفاء المرضى، و تفريج الكربات و دفع الضر، فهذا النوع غير جائز، و هو شرك أكبر، و قد كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي



المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إنه لا يستغاث بي، و إنما يستغاث بالله " رواه الطبراني.]، كره صلى الله عليه وسلم أن يستعمل هذا اللفظ في حقه، و إن كان مما يقدر عليه في حياته؛ حماية لجناب التوحيد و سدًا لذرائع الشرك، و أدبًا و تواضعًا لربه، و تحذيرًا للأمة من وسائل الشرك في الأقوال و الأفعال؛ فإذا كان هذا فيما يقدر عليه النبي صلى الله عليه وسلم في حياته، فكيف يستغاث به بعد مماته، و يطلب منه أمور لا يقدر عليها إلا الله [فتح المجيد صلى الله عليه وسلم 196 ـ 197ـ]، و إذا كان هذا لا يجوز في حقه صلى الله عليه وسلم فغيره من باب أولى.

الباب الخامس
في بيان ما يجب اعتقـاده في الرسـول صـلى الله عليه وسـلم و أهل بيته و صحابته
و ذلك في فصول:
الفصل الأول: في وجوب محبة الرسـول و تعظيمـه، و النهي عن الغلو و الإطراء في مدحه، و بيان منزلته صلى الله عليه وسلم.
الفصل الثاني: في وجوب طاعته و الاقتداء به.
الفصل الثالث: في مشروعية الصلاة و السلام عليه.
الفصل الرابع: في فضل أهل البيت، و ما يجب لهم من غير جفاء و لا غلو.
الفصل الخامس: في فضل الصـحابة و ما يجب اعتقـاده فيهم، و مذهب أهل السنة والجماعة فيما حدث بينهم.
الفصل السادس: في النهي عن سب الصحابة و أئمة الهدى.

الفصل الأول

في وجوب محبة الرسول و تعظيمه، و النهي عن الغلو و الإطراء في مدحه، و بيان منزلته صلى الله عليه وسلم.

1 ـ وجوب محبة الرسول و تعظيمه صلى الله عليه وسلم:

يجب على العبد أولًا: محبة الله عز و جل، و هي من أعظم أنواع العبادة، قال تعالى: {و الذين ءامنوا أشد حبا لله }. [البقرة: 165.]

لأنه هو الرب المتفضل على عباده بجميع النعم ظاهرها و باطنها، ثم بعد محبة الله تعالى، تجب محبة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه هو الذي دعا إلى الله، و عرف به، و بلغ شريعته، و بين أحكامه، فما حصل للمؤمنين من خير في الدنيا و الآخرة، فعلى يد هذا الرسول، و لا يدخل أحد الجنة إلا بطاعته و اتباعه صلى الله عليه وسلم، و في الحديث: " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله و رسوله أحب إليه مما سواهما، و أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، و أن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار ". [متفق عليه.]

فمحبة الرسول تابعة لمحبة الله تعالى، لازمة لها، وتليها في المرتبة، وقد جاء بخصوص محبته صلى الله عليه وسلم و وجوب تقديمها على محبة كل محبوب سوى الله تعالى، قوله صلى الله عليه وسلم: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده و الناس أجمعين ". [متفق عليه.]

بل ورد أنه يجب على المؤمن أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه، كما في الحديث: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال: " و الذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك "، فقال له عمر: فإنك الآن أحب إلي من نفسي، فقال: " الآن يا عمر ". [رواه البخاري.]

ففي هذا أن محبة الرسول واجبة و مقدمة على امحبة كل شيء سوى محبة الله، فإنها تابعة لها لازمة لها؛ لأنها محبة في الله و لأجله، تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن، و تنقص بنقصها، و كل من كان محبًا لله؛ فإنما يحب في الله و لأجله.

و محبته صلى الله عليه وسلم تقتضي تعظيمه و توقيره و اتباعه، و تقديم قوله على قول كل أحد من الخلق، و تعظيم سنته.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: (و كل محبة و تعظيم للبشر، فإنما تجوز تبعًا لمحبة الله و تعظيمه، كمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه، فإنها من تمام محبة مرسله و



تعظيمــه، فــإن أمته يحبونه لمحبة الله لــه، و يعظمونه ويجلونه لإجلال الله له، فهي محبة لله من موجبات محبة الله.
و المقصود: أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم ألقى الله عليه من المهابة و المحبة... ولهذا لم يكن بشر أحب إلى بشــر، و لا أهيب و أجل في صـدره، من رســول الله صـلى الله عليه وســلم في صـدور أصـحابه ــ رضي الله عنهم ـ، قـال عمـرو بن العـاص بعد إسلامه: إنه لم يكن شخص أبغض إلي منه. فلما أسلمت، لم يكن شخص أحب إلي منه، و لا أجل في عيني منه، قـال: و لو سـئلت أن أصفه لكم لما أطلقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه، إجلالًا له.
و قال عروة بن مسـعود لقـريش: يا قـوم، و الله لقد وفـدت إلى كســرى و قيصر و الملــوك، فما رأيت ملكًا يعظمه أصــحابه، ما يعظم أصـحاب محمد محمـدًا صـلى الله عليه وسـلم، و الله ما يحدون النظر إليه تعظيمًا له، و ما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فيـدلك بها وجهه وصـدره، و إذا توضأ كـادوا يقتتلـون على وضوئه) انتهى. [جلاء الأفهام صـلى الله عليه وسـلم 120 ــ 121.]

2 ـ النهي عن الغلو و الإطراء في مدحه:

الغلو: تجاوز الحد، يقال: غلا غلوا، إذا تجاوز الحد في القدر، قـال تعالى: {لا تغلوا في دينكم} [النساء: 171.] أي: لا تجاوزوا الحد.
و الإطراء: مجاوزة الحد في المدح، و الكذب فيه، و المراد بالغلو في حق النبي صلى الله عليه وسلم: مجاوزة الحد في قدره؛ بأن يرفع فـــوق مرتبة العبودية و الرســـالة، و يجعل له شـــيء من خصائص الإلهية، بأن يدعى ويستغاث به من دون الله، ويحلف به.
و المـراد بـالإطراء في حقه صـلى الله عليه وسـلم: أن يـزاد في مدحه، فقد نهى صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله: " لا تروني كما أطرت النصـارى ابن مـريم، إنما أنا عبـد، فقولـوا: عبد الله و رسوله " [متفق عليه.]، أي: لا تمـدحوني بالباطـل، و لا تجـاوزوا الحد في مدحي، كما غلت النصارى في عيسى ــ عليه السـلام ــ فـادعوا فيه الألوهيـة، و صـفوني بما و صـفوني به ربي، فقولـوا: عبد الله و رسوله. و لما قال له بعض أصحابه: أنت سيدنا، فقال: " السـيد الله تبـارك و تعـالى "، و لما قــالوا: أفضـلنا و أعظمنا طولًا، فقال: " قولـوا بقـولكم، أو بعض قـولكم، و لا يسـتجرينكم الشيطان ". [رواه أبو داود بسند جيد.]
و قال له نـاس: يا رسـول اللـه، يا خيرنا و ابن خيرنـا، و سـيدنا و ابن سيدنا، فقال: " يا أيها الناس، قولوا بقولكم، و لا يســتهوينكم



الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فـوق منزلتي التي أنزلني الله عز و جل ". [رواه أحمد و النسائي.]
كره صلى الله عليه وسلم أن يمدحوه بهذه الألفاظ: أنت سيدنا ـ أنت خيرنا ــ أنت أفضـلنا ــ أنت أعظمنـا، مع أنه أفضل الخلق و أشرفهم على الإطلاق، لكنه نهاهم عن ذلك، ابتعادًا بهم عن الغلو و الإطــراء في حقــه، و حماية للتوحيــد، و أرشــدهم أن يصــفوه بصفتين، هما أعلى مراتب العبــد، وليس فيهما غلو ولا خطر على العقيدة، وهما: عبد الله و رسوله، ولم يحب أن يرفعـوه فـوق ما أنزله الله عز وجل من المنزلة التي رضـيها لـه، و قد خـالف نهيه صـــلى الله عليه وســـلم كثــير من النـــاس فصـــاروا يدعونـــه، و يسـتغيثون بـه، و يحلفـون بـه، و يطلبـون منه ما لا يطلب إلا من الله، مكا يفعل في الموالد و القصائد و الأناشيد، و لا يميزون بين حق الله و حق الرسول.
يقول العلامة ابن القيم في النونية:
لله حق لا يكون لغيره
و لعبده حق هما حقان
لا تجعلوا الحقين حقا واحدًا
من غير تمييز و لا فرقان
3 ـ بيان منزلته صلى الله عليه وسلم:
لا بأس ببيان منزلته بمدحه صـلى الله عليه وسـلم بما مدحه الله به، وذكر منزلته التي فضله الله بها و اعتقاد ذلك، فله صـلى الله عليه وسـلم المنزلة العالية الـتي أنزله الله فيهـا، فهو عبد الله و رســـوله، و خيرته من خلقـــه، وأفضل الخلق على الإطلاق، و هو رسـول الله إلى النـاس كافـة، و إلى جميع الثقلين الجن والإنس، وهو أفضل الرسل، و خاتم النبيين، لا نبي بعده، قد شــرح الله له صــدره، ورفع له ذكــره، و جعل الذلة و الصـغار على من خـالف أمره، و هو صاحب المقام المحمـود الـذي قـال الله تعـالى فيـه: {عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا (79) }. [الإسراء: 79.]
أي: المقـام الـذي يقيمه الله فيه للشـفاعة للنـاس يـوم القيامـة؛ ليريحهم ربهم من شدة الموقف، و هو مقام خـاص به صـلى الله عليه وسلم دون غيره من النبيين.
و هو أخشى الخلق للـــه، و أتقـــاهم لـــه، و قد نهى الله عن رفع الصـوت بحضـرته صـلى الله عليه وسـلم، و أثـنى علي الـذين يغضـون أصـواتهم عنـده، فقـال تعـالى: {يا أيها الـذين أمنـوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صـوت النـبي و لا تجهـروا له بـالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم و أنتم لا تشغرون (2) إن الذين



يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلـوبهم للتقـوى لهم مغفـرة وأجر عظيم (3) إن الـذين يناودنك من وراء الحجـرات أكـثرهم لا يعقلـون (4) و لو أنهم صـبروا حـتى تخـرج إليهم لكان خيرًا لهم و الله غفور رحيم (5) }. [الحجرات: 3 ـ 5.]

قـال الإمـام ابن كثـير ــ رحمه الله ــ: (هـذه آيـات أدب الله فيها عباده المؤمنين فيما يعاملون به النبي صلى الله عليه وسـلم من التوقير و الاحترام، والتبجيل و الإعظام... أن لا يرفعـوا أصـواتهم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فوق صوته).

و نهى سبحانه و تعالى أن يدعى الرسول باسمه كما يدعى سائر الناس، فيقال: يا محمد، و إنما يدعى بالرسالة و النبوة فيقـال: يا رسول الله، يا نبي اللـه، قـال تعـالى: {لا تجعلـوا دعـاء الرسـول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا }. [النور: 63.]

كما أن الله سـبحانه يناديه بـ يا أيها النـبي، يا أيها الرسـول. و قد صلى الله وملائكته عليه، و أمر عبـاده بالصـلاة و التسـليم عليـه، فقال تعـالى: {إن الله وملائكته يصـلون على النـبي يا أيها الـذين أمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما (56) }. [الأحزاب: 56.]

لكن لا يخصص لمدحه صـــلى الله عليه وســـلم وقت و لا كيفية معينة إلا بـدليل صـحيح من الكتـاب و السـنة، فما يفعله أصـحاب الموالد من تخصيص اليوم الذي يزعمون أنه يوم مولـده لمدحـه: بدعة منكرة.

و من تعظيمه صــلى الله عليه وســلم: تعظيم ســنته، و اعتقــاد وجـوب العمل بهـا، و أنها في المنزلة الثانية بعد القـرآن الكـريم في وجوب التعظيم و العمل، لأنها وحي من الله تعالى، كام قـال تعالى: {و ما ينطق عن الهوى (3) إن هو إلا وحي يوحى (4) }. [النجم: 3، 4.]

فلا يجــوز التشــكيك فيهــا، و التقليل من شــأنها، أو الكلام فيها بتصحيح أو تضعيف لطرقها و أسانيدها أو شرح لمعانيها إلا بعلم و تحفـظ، و قد كـثر في هـذا الزمـان تطـاول الجهـال على سـنة الرســول صــلى الله عليه وســلم خصوصًــا من بعض الشــباب الناشئين، الذين لا يزالون في المراحل الأولى من التعليم، صاروا يصححون و يضعفون في الأحـاديث، و يجرحـون في الـرواة بغـير علم سوى قراءة الكتب، و هـذا خطر عظيم عليهم و على الأمـة، فيجب عليهم أن يتقوا الله، و يقفوا عند حدهم.

الفصل الثاني
في وجوب طاعته صلى الله عليه وسلم و الاقتداء به
تجب طاعة النبي صلى الله عليه وسلم بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، و هذا من مقتضى شهادة أنه رسول الله، و قد أمر الله تعالى بطاعته في آيات كثيرة، تارة مقرونة مع طاعة الله، كما في قوله: {يا أيها الذين ءامنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول} [النساء: 59.] و أمثالها من الآيات، و تارة يأمر بها منفردة، كما في قوله: {من يطع الرسول فقد أطاع الله} [النساء: 80ـ]، {و أطيعوا الرسول لعلكم ترحمون (56) }. [النور: 56.]
و تارة يتوعد من عصى رسوله صلى الله عليه وسلم، كما في قوله تعالى: {فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم (63) }. [النور: 63.] \
أي: تصيبهم فتنة في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة، أو عذاب أليم في الدنيا، بقتل أو حد أو حبس، أو غير ذلك من العقوبات العاجلة.
و قد جعل الله طاعته و اتباعه سببًا لنيل محبة الله للعبد و مغفرة ذنوبه، قال تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله و يغفر لكم ذنوبكم }. [آل عمران: 31.]
و جعل طاعته هداية، و معصيته ضلالًا، قال تعالى: {و إن تطيعوه تهتدوا }. [النور: 54.]
و قال تعالى: {فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم و من أضل ممن اتبع هواه بغي هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين (50) }. [القصص: 50.]
و أخبر سبحانه و تعالى أن فيه القدوة الحسنة لأمته، فقال تعالى: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله و اليوم الآخر و ذكر الله كثيرًا (21) }. [الأحزاب: 21.]
قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: (هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله و أفعاله و أحواله، و لهذا أمر تبارك و تعالى الناس بالتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب في صبره و مصابرته، و مرابطته و مجاهدته، و انتظاره الفرج من ربه ــ عز و جل ــ صلوات الله و سلامه عليه دائمًا، إلى يوم الدين).
و قد ذكر الله طاعة الرسول و اتباعه في نحو أربعين موضعًا من القرآن، فالنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به و اتباعه منها إلى الطعام و الشراب، فإن الطعام و الشراب إذا فات الحصول

عليهمـا؛ حصل المـوت في الـدنيا، و طاعة الرسـول و اتباعه إذا فاتـا؛ حصل العـذاب و الشـقاء الـدائم، وقد أمر صـلى الله عليه وسـلم بالاقتـداء به في أداء العبـادات، و أن تـؤدي على الكيفية التي كان يؤديها بها، فقال تعالى: {لقد كـان لكم في رسـول الله أسوة حسـنة} [الأحـزاب: 21ـ]، و قـال النـبي صـلى الله عليه وسلم: " صلوا كما رأيتموني أصلي " [الحـديث رواه البخـاري.]، وقال: " خذوا عني مناسككم " [الحديث رواه مسلم.]، و قال: " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " [الحــديث متفق عليه]، و قـال: " من رغب عن سـنتي فليس مـني " [متفق عليـه.] إلى غير ذلك من النصوص، التي فيها الأمر بالاقتـداء بـه، و النهي عن مخالفته.

الفصل الثالث
في مشروعية الصلاة و السلام على الرسول ص
من حقه الذي شرع الله له على أمته أن يصلوا و يسلموا عليه، فقد قال الله تعالى: {إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين ءامنوا صلوا عليه وسلموا تسليما (56) }. [الأحزاب: 56.]
و قد ورد أن معنى صلاة الله تعالى: ثناؤه عليه عند الملائكة، و صلاة الملائكة: الدعاء، و صلاة الآدميين: الاستغفار [ذكره البخاري عن أبي العالية.]، و قد أخبر الله سبحانه في هذه الآية عن منزلة عبده و نبيه عنده في الملأ الأعلى؛ بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، و أن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة و التسليم عليه؛ ليجتمع الثناء عليه من أهل العالم العلوي و السفلي.
و معنى: {و سلموا تلسيمًا} أي: حيوه بتحية الإسلام، فإذا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم فليجمع بين الصلاة و التسليم؛ فلا يقتصر على أحدهما، فلا يقول: (صلى الله عليه) فقط، و لا يقول: (عليه السلام) فقط؛ لأن الله تعالى أمر بهما جميعًا.
و تشرع الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في مواطن يتأكد طلبها فيها، إما وجوبًا و إما استحبابًا مؤكدًا، و ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه: (جلاء الأفهام) واحدًا و أربعين موطنًا، بدأها بقوله: (الموطن الأول: ـ و هو أهمها و آكدها ـ في الصلاة في آخر التشهد، و قد أجمع المسلمون على مشروعيته، و اختلفوا في وجوبه فيها) [جلاء الأفهام صلى الله عليه وسلم 222، 223.] ثم ذكر من المواطن: آخر القنوت، و في الخطب كخطبة الجمعة، و العيدين و الاستسقاء، و بعد إجابة المؤذن، و عند الدعاء، و عند دخول المسجد و الخروج منه، و عند ذكره صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر ـ رحمه الله ـ الثمرات الحاصلة من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فذكر فيها أربعين فائدة [جلاء الأفهام 302.]، ومنها:
امتثال أمر الله سبحانه بذلك.
و منها: حصول عشر صلوات من الله على المصلي مرة.
و منها: رجاء إجابة الدعاء إذا قدمها أمامه.
و منها: أنها سبب لشفاعته صلى الله عليه وسلم إذا قرنها بسؤال الوسيلة له صلى الله عليه وسلم.
و منها: أنها سبب لغفران الذنوب.



و منها: أنها سبب لرد النبي صلى الله عليه وسـلم على المصـلي و المسلم عليه.
فصلوات الله وسلامه على هذا النبي الكريم.

الفصل الرابع

في فضل أهل البيت و ما يجب لهم من غير جفاء و لا غلو

أهل البيت هم آل النبي صلى الله عليه وسلم الذين حرمت عليهم الصدقة، و هم آل علي، و آل جعفر، و آل عقيل، و آل العباس، و بنو الحارث بن عبد المطلب، و أزواج النبي صلى الله عليه وسلم و بناته؛ لقوله تعالى: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرًا (33) }. [الأحزاب: 33.]

قال الإمام ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ: (ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن، أن نساء النبي صلى الله عليه وسلم داخلات في قوله تعالى: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيرًا (33) }. [الأحزاب: 33.]

فإن سياق الكلام معهن، و لهذا قال بعد هذا كله: {و اذكرن ما يتلى في بيوتكن من ءايت الله و الحكمة }. [الأحزاب: 34.]

أي: و اعملن بما ينزل الله تبارك و تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم في بيوتكن، من الكتاب و السنة. قاله قتادة و غير واحد.

و اذكرن هذه النعمة التي خُصِصْتُنّ بها من بين الناس: أن الوحي نزل في بيوتكن دون سائر الناس، و عائشة الصديقة بنت الصديق ـ رضي الله عنها ـ أولاهن بهذه النعمة، و أخصهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صلوات الله و سلامه عليه، و قال بعض العلماء: لأنه لم يتزوج بكرًا سواها، و لم ينم معها رجل في فراشها سواه (يريد أنها لم تتزوج غيره) فناسب أن تخصص بهذه المزية، و أن تفرد بهذه المرتبة العلية، و لكن إذا كان أزواجه من أهل بيته، فقرابته أحق بهذه التسمية) انتهى من تفسير ابن كثير.

فأهل السنة و الجماعة يحبون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم و يتولونهم، و يحفظون فيهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قال يوم غدير خم (اسم موضع): " أذكركم الله في أهل بيتي ". [رواه مسلم]

فأهل السنة يحبونهم و يكرمونهم؛ لأن ذلك من محبة النبي صلى الله عليه وسلم و إكرامه، و ذلك بشرط: أن يكونوا متبعين للسنة مستقيمين على الملة، كما كان عليه سلفهم كالعباس و بنوه، و علي الملة، كما كان عليه سلفهم كالعباس و بنوه، و علي و بنوه، أما من خالف السنة، و لم يستقم على الدين، فإنه لا تجوز موالاته و لو كان من أهل البيت.



فموقف أهل السنة و الجماعة من أهل الـبيت موقف الاعتـدال و الإنصاف، يتولون أهل الـدين و الاسـتقامة منهم، و يتـبرءون ممن خالف السنة و انحراف عن الدين، و لو كان من أهل البيت، فـإن كونه من أهل الـبيت و من قرابة الرسـول، لا ينفعه شـيئًا حـتى يسـتقيم على دين اللـه، فقد روى أبو هريـرة ــ رضي الله عنه ــ قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسـلم حين أنـزل عليـه: {و أنذر عشيرتك الأقربين (214) }. [الشعراء: 214.]

فقال: " يا معشر قريش ــ أو كلمة نحوها ــ اشـتروا أنفسـكم، لا أغـني عنكم من الله شـيئًا، يا عبـاس ابن عبد المطلب لا أغـني عنك من الله شـيئًا، يا صـفية عمة رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم، لا أغـني عنك من الله شـيئًا، و يا فاطمة بنت محمـد، سليني من مـالي ما شئت، لا أغـنى عنك من الله شـيئًا ". [رواه البخاري.]

و الحديث: " من بطأ عمله لم يسرع به نسبه ". [رواه مسلم.]

و يتبرأ أهل السنة و الجماعة من طريقة الروافض؛ الـذين يغلـون في بعض أهل الـبيت، و يـدعون لهم العصـمة، و من طريقة النواصـب؛ الـذين ينصـبون العـداوة لأهل الـبيت المسـتقيمين، و يطعنـون فيهمم، و من طريقة المبتدعة و الخرافـيين الـذين يتوسلون بأهل البيت، و يتخذونهم أربابًا من دون الله.

فأهل السـنة في هـذا البـاب و غـيره على المنهج المعتـدل، و الصراط المستقيم الذي لا إفراط فيه و لا تفريط، و لا جفـاء و لا غلو في حق أهل الـبيت و غـيرهم، و أهل الـبيت المسـتقيمون ينكـرون الغلو فيهم، و يتـبرأون من الغلاة، فقد حـرق أمـير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ الغلاة الذين غلـوا فيه بالنار، و أقره ابن عباس ـ رضي الله عنه ـــ على قتلهم، لكن يرى قتلهم بالسيف بـدلًا من التحريـق، و طلب علي ــ رضي الله عنهما ـ عبد الله بن سبأ رأس الغلاة ليقتله؛ لكنه هرب و اختفى.

الفصل الخامس
في فضل الصحابة و ما يجب اعتقاده فيهم
و مذهب أهل السنة و الجماعة فيما حدث بينهم
ما المراد بالصحابة، و ما الذي يجب اعتقاده فيهم:
الصحابة جمع صحابي: و هو من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنًا به و مات على ذلك، و الذي يجب اعتقاده فيهم أنهم أفضل الأمة، و خير القرون؛ لسبقهم و اختصاصهم بصحبة النبي صلى الله عليه وسلم و الجهاد معه، و تحمل الشريعة عنه، و تبليغها لمن بعدهم، و قد أثنى الله عليهم في محكم كتابه، قال تعالى: {و السابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار و الذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم و رضوا عنه و أعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ذلك الفوز العظيم (100) }. [التوبة: 100.]
و قال تعالى: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحما بينهم تراهم ركعًا سجًا يبتغون فضلا من الله و رضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة و مثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين ءامنوا و عملوا الصالحات منهم مغفرة و أجرًا عظيمًا (29) }. [الفتح: 29.]
و قال تعالى: {للفقراء المهجرين الذين أخرجوا من ديارهم و أموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانًا و ينصرون الله و رسوله أولئك هم الصادقون (8) و الذين تبوءو الدار و الإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم و لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا و يؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة و من يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (9) }. [الحشر: 8، 9.]
ففي هذه الآيات أن الله سبحانه أثني على المهاجرين و الأنصار، وو صفهم بالسبق إلى الخيرات، و أخبر أنه قد رضي الله عنهم، و أعد لهم الجنات، و وصفهم بكثرة الركوع و السجود، و صلاح القلوب، و أنهم يعرفون بسيما الطاعة و الإيمان، و أن الله اختارهم لصحبة نبيه ليغيظ بهم أعداءه الكفار، كما وصف المهاجرين بترك أوطانهم و أموالهم من أجل الله و نصرة دينه، و ابتغاء فضله و رضوانه، و أنهم صادقون في ذلك، و وصف الأنصار بأنهم أهل دار الهجرة و النصرة، و الإيمان الصادق، و وصفهم بمحبة إخوانهم المهاجرين، و إيثارهم على أنفسهم، و مواساتهم لهم، و سلامتهم من الشح، و بذلك حازوا على الفلاح. هذه بعض



فضائلهم العامة، و هناك خاصة و مراتب يفضل بها بعضهم بعضًا، رضي الله عنهم، و ذلك بحسب سبقهم إلى الإسلام و الجهاد و الهجرة.
فأفضل الصحابة الخلفاء الأربعة: أبو بكر و عمر و عثمان و علي، ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة، و هم هؤلاء الأربعة و طلحة، و الزبير، و عبد الرحمن بن عوف، و أبو عبيدة بن الجراح، و سعد بن أبي وقاص، و سعيد بن زيد، و يفضل المهاجرون على الأنصار، و أهل بدر و أهل بيعة الرضوان، و يفضل من أسلم قبل الفتح و قاتل، على من أسلم بعد الفتح.
2 ـ مذهب أهل السنة و الجماعة فيما حدث بين الصحابة من القتال و الفتنة:
سبب الفتنة: تآمر اليهود على الإسلام و أهله، فدسوا ماكرًا خبيثًا تظاهر بالإسلام كذبًا وزورًا هو: عبد الله بن سبأ، من يهود اليمن، فأخذ هذا اليهودي ينفث حقده و سمومه ضد الخليفة الثالث من الخلفاء الراشدين: عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه و أرضاه ـ و يختلق التهم ضده، فالتف حوله من انخدع به من قاصري النظر و ضعاف الإيمان و محبي الفتنة، و انتهت المؤامرة بقتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه مظلومًا، وعلى أثره مقتله حصل الاختلاف بين المسلمين، و شبت الفتنة بتحريض من هذا اليهودي و أتباعه، و حصل القتال بين الصحابة عن اجتهاد منهم.
قال شارح الطحاوية: (إن أصل الرفض إنما أحدثه منافق زنديق، قصده إبطال دين الإسلام، و القدح في الرسول صلى الله عليه وسلم كما ذكر ذلك العلماء، فإن عبد الله بن سبأ، لما أظهر الإسلام، أراد أن يفسد دين الإسلام بمكره وخبثه ـ كما فعل بولس بدين النصرانية ـ فأظهر التنسك، ثم أظهر الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، حتى سعى في فتنة عثمان وقتله، ثم لما قدم على الكوفة أظهر الغلو في علي، والنصر له، ليتمكن بذلك من أغراضه، وبلغ ذلك عليًا فطلب قتله؛ فهرب منه إلى قرقيس، وخبره معروف في التاريخ).
و قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (فلما قتل عثمان رضي الله عنه، تفرقت القلوب وعظمت الكروب، و ظهرت الأشرار و ذل الأخيار، و سعى في الفتنة من كان عاجزًا عناه، وعجز عن الخير و الصلاح من كان يحب إقامته، فبايعوا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وهو أحق الناس بالخلافة حينئذ، و أفضل من بقي، لكن كانت القلوب متفرقة، ونار الفتنة متوقدة، فلم تتفق الكلمة، و لم تنتظم الجماعة، و لم يتمكن



الخليفة و خيـــار الأمة من كل ما يريدونه من الخــير، و دخل في الفرقة و الفتنة أقوام، و كان ما كان). [مجمـوع الفتـاوى (25 / 304 ـ 305).]

و قال أيضًا مبينًا عـذر المتقـاتلين من الصـحابة؛ في قتـال علي و معاويـة: (و معاوية لم يـدع الخلافـة، و لم يبـايع له بها حين قاتل عليًا، و لم يقاتل على أنه خليفة، و لا أنه يستحق الخلافـة, و كـان معاوية يقر بذلك لمن سأله عنه، و لا كان معاوية و أصحابه يرون أن يبتـدئوا عليًا و أصـحابه بالقتـال؛ بل لما رأى علي ــ رضي الله عنه ــ و أصـحابه أنه يجب عليهم طاعته و مبايعتــه، إذ لا يكــون للمسلمين إلا خليفة واحد، و أنهم خارجون عن طاعتـه؛ يمتنعـون هذا الواجب، و هم أهل شوكة، رأى أن يُقـاتلهم حـتى يـؤدوا هـذا الـــواجب، فتحصل الطاعة و الجماعـــة. و هم (أي معاوية و من معــه) قـالوا: إن ذلك لا يجب عليهم، و أنهم إذا قوتلـوا على ذلك كانوا مظلومين، قالوا: لأن عثمان قُتِلَ مَظلومًا باتفاق المسلمين، و قتلته في عسـكر علي، و هم غـالبون لهم شـوكة، فـإذا امتنعنا ظلمونا و اعتـــدوا علينـــا، و علي لا يمكنه دفعهم كما لم يمكنه الــدفع عن عثمــان، و إنما علينا أن نبــايع خليفة يقــدر على أن ينُصفنا و يبذل لنا الإنصاف.

و مــذهب أهل الســنة و الجماعة في الاختلاف الــذي حصــل، و الفتنة التي وقعت من جرائها الحـروب بين الصـحابة، يتلخص في أمرين:

الأمر الأول: أنهم يمسكون عن الكلام فيما حصل بين الصحابة، و يكفون عن البحث فيه؛ لأن طريق السلامة هو الســكون عن مثل هذا، و يقولون: {ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان و لا تجعل في قلوبنا غلا للـذين آمنـوا ربنا إنك رءوف رحيم (10)ـ }. [الحشر: 10.]

الأمر الثاني: الإجابة عن الآثـار المروية في مسـاويهم، و ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن هذه الآثار منها ما هو كذب؛ قد افـتراه أعـداؤهم ليشوهوا سمعتهم.

الوجه الثاني: أن هذه الآثـار منها ما قد زيد و نقص فيه و غُيِّرَ عن وجهه الصحيح، و دخله الكذب، فهو محرف لا يلتفت إليه.

الوجه الثالث: أن ما صح من هـذه الآثـار ــ و هو القليل ــ هم فيه معـــذورون؛ لأنهم إما مجتهـــدون مصـــيبون، و إما مجتهـــدون مخطئـون، فهو من مـوارد الاجتهـاد الـذي إن أصـاب المجتهد فيه فله أجـران، و إن أخطأ فله أجر واحــد، و الخطأ مغفـور؛ لما في

الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إذا اجتهدَ الحاكمُ فأصاب فله أجران، و إن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد ".
[في الصحيحين من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنهما.]
الوجه الرابعُ: أنهم بشر يجوز على أفرادهم الخطأ، فهم ليسوا معصومين من الذنوب بالنسبة للأفراد؛ لكن ما يقع منهم فله مكفرات عديدة منها:
1 ـ أن يكون قد تاب منه، و التوبة تمحو السيئة مهما كانت، كما جاءت به الأدلة.
2 ـ أن لهم من السوابق و الفضائل ما يوجب مغفرة ما صدر منهم، إن صدر، قال تعالى: {إن الحسنات يذهبن السيئات }. [هود: 114.]
و لهم من الصُّحبة و الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يغمر الخطأ الجزئي.
3 ـ أنهم تُضاعفُ لهم الحسنات أكثر من غيرهم، و لا يساويهم أحد في الفضل، و قد ثبت بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم خير القرون، و أن المُدَّ من أحدهم إذا تصدق به؛ أفضل من جبل أحد ذهبًا إذا تصدق به غيرهم [في الحديث متفق عليه.] ـ رضي الله عنهم ـ و أرضاهم)ـ
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (و سائر أهل السنة و الجماعة وأئمة الدين لا يعتقدون عصمة أحد من الصحابة، و لا القرابة و لا السابقين و لا غيرهم، بل يجوز عندهم وقوع الذنوب منهم، و الله تعالى يغفرُ لهم بالتوبة، و يرفع لها درجاتهم، و يغفر لهم بحسنات ماحية، أو بغير ذلك من الأسباب، قال تعالى: {و الذي جاء بالصدق و صدق به أولئك هم المتقون (33) لهم ما يشأون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين (34) ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا و يجزيهم أجرهم باحسن الذي كانوا يعملون (35) }. [الزمر: 32 ـ 35.]
و قال تعالى: {حتى إذا بلغ أشده و بلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي و على والدي و أن أعمل صالحًا ترضاه و أصلح لي في ذريتي إني تبت إليك و إني منن المسلمين (15) أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا و نتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة} [الأحقاف: 15، 16.] انتهى). [انظر: مجموع الفتاوى (35 / 69).]
و قد اتخذ أعداء الله ما وقع بين الصحابة وقت الفتنة من الاختلاف و الاقتتال سببًا للوقيعة بهم، و النيل من كرامتهم و قد جرى على هذا المخطط الخبيث بعض الكتاب المعاصرين؛ الذين



يهرفون بما لا يعرفون، فجعلوا أنفسهم حكمًا بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ يصوّبون بعضَهم، و يخطئـون بعضَـهم، بلا دليل، بل بالجهل و اتباع الهوى، و ترديد ما يقوله المغرضون و الحاقدون من المستشرقين و أذنابهم؛ حتى شـككوا بعضَ ناشـئة المسلمين ـ ممن ثقافتهم ضَحلة ـ بتاريخ أمتهم المجيد، و سلفهم الصـالح الـذين هم خـير القـرون؛ لينفـذوا بالتـالي إلى طعن في الإسلام، و تفريق كلمة المسلمين، و إلقاء البُغضَ في قلـوب آخر هذه الأمة لأولها، بدلًا من الاقتداء بالسلف الصالح، و العمل بقوله تعالى: {و الذين جاءوا من بعدهم يقولـون ربنا اغفر لنا و لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان و لا تجعل في قلوبنا غلًا للـذين ءامنـوا ربنا إنك رءوف رحيم (10) }. [الحشر: 10.]

الفصل السادس
في النهي عن سب الصحابة و أئمة الهدى
1 ـ النهي عن سب الصحابة:
من أصول أهل السنة والجماعة: سلامة قلوبهم و ألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما وصفهم الله بذلك في قوله تعالى: {و الذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا و لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان و لا تجعل في قلوبنا غلًا للذين ءامنوا ربنا إنك رءوف رحيم (10) }. [الحشر: 10.]
و طاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: " لا تسُبوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مدَّ أحدهم و لا نصيفه ". [الحديث متفق عليه.]
و يتبرءون من طريقة الرافضة و الخوارج الذين يسبون الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ و يبغضونهم، و يجحدون فضائلهم، و يكفرون أكثرهم.
و أهل السنة يقبلون ما جاء في الكتاب و السنة من فضائلهم، ويعتقدون أنهم خير القرون، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " خيركم قرني... " الحديث. [الحديث في الصحيحين.]
و لما ذكر صلى الله عليه وسلم افتراق الأمة إلى ثلاث و سبعين فرقة، و أنها في النار إلا واحدة، و سألوه عن تلك الواحدة، قال " هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم و أصحابي ". [رواه الإمام أحمد و غيره.]
قال أبو زرعة ـ و هو أجل شيوخ الإمام مسلم ـ: إذا رأيت الرجل ينتقص امرءًا من الصحابة؛ فاعلم أنه زنديق، و ذلك أن القرآن حق، و الرسول حق، و ما جاء به حق، و ما أدى إلينا ذلك كله إلا الصحابة؛ فمن جرحهم إنما أراد إبطال الكتاب و السُنَّة؛ فيكون الجرح به أليق، و الحكم عليه بالزندقة و الضلال أقوم و أحق.
قال العلامة ابن حمدان في نهاية المبتدئين: من سَبَّ أحدًا من الصحابة مُستحلًا؛ كفر، و إن لم يستحل فسق، و عنه: يكفر مطلقًا، و من فَسَّقهم، أو طعن في دينهم، أو كفَّرهم؛ كفر. [شرح عقيد السفاريني (2 / 388 ـ 389).]
2 ـ النهي عن سب أئمة الهدى من علماء هذه الأمة:
يلي الصحابة في الفضيلة و الكرامة و المنزلة: أئمة الهدى من التابعين و أتباعهم من القرون المفضلة، و من جاء من بعدهم ممن تبع الصحابة بإحسان، كما قال تعالى: {و السابقون الأولون من المهاجرين و الأنصار و الذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم و رضوا عنه} [التوبة: 100.]. الآية.



فلا يجوزُ تنقصهم و سبهم؛ لأنهم أعلام هدى، فقد قال تعـالى: {و من يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهـدى و يتبع غـير سـبيل المؤمنين نوله ما تولى و نصله جهنم و ساءت مصـيرًا (115)ـ }. [النساء: 115.]

قال شارح الطحاويـة: (فيجبُ على كل مسـلم بعد مُـوالاة الله و رسوله: موالاة المؤمنين، كما أطلق القُـرآنُ، خصوصًـا الـذين هُمْ ورثة الأنبيـاء، الـذين جعلهم الله بمنزلة النجـوم، يُهتـدى بهم في ظلمـات الـبر والبحـر، و قد أجمـعَ المسـلمون على هـدايتهم ودرايتهم.

فإنهم خُلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم في أمته، و المحيـون لما مـات من سـنته، فبهم قـام الكتـاب و به قـاموا، و بهم نطق الكتاب و به نطقوا، و كلهم متفقون اتفاقًا يقينًا على وجوب اتبـاع الرسول صلى الله عليه وسلم، و لكن: إذا وجد لواحد منهم قـول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلا بد له في تركه من عذر).

و جماع الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدها: عدم اعتقاده أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله.

الثاني: عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول.

الثالث: اعتقاده أن الحكم منسوخ.

فلهم الفضل علينا و المنة؛ بالسـبق و تبليغ ما أرسل به الرسـول صـلى الله عليه وسـلم إلينـا، وإيضـاح ما كـان منه يخفى علينـا، فرضي الله عنهم و أرضاهم {و الذين جـاءوا من بعـدهم يقولـون ربنا اغفر لنا و لإخواننا الـــذين ســـبقونا بالإيمـــان و لا تجعل في قلوبنا غلًا للـذين ءامنـوا ربنا إنك رءوف رحيم (10) }. [الحشـر: 10.]

و الحط من قـدر العلمـاء؛ بسـبب وقـوع الخطأ الاجتهـادي من بعضهم، هو من طريقة المبتدعة، و من مُخططـات أعـداء الأمـة؛ للتشـكيك في دين الإسـلام، و لإيقـاع العـداوة بين المسـلمين، و لأجل فصل خلف الأمة عن ســلفها، و بث الفرقة بين الشـــباب والعلمـــــاء، كما هو الواقع الآن، فليتنبه لـــــذلك بعض الطلبة المبتـدئين؛ الـذين يحطـون من قـدر الفقهـاء؛ و من قـدر الفقه الإسـلامي، و يزهـدون في دراسـته، و الانتفـاع بما فيه من حق و صـواب، فليعـتزوا بفقههم، و ليحـترموا علمـاءهم؛ و لا ينخـدعوا بالدعايات المضللة و المغرضة. و الله الموفق.

الباب السادس

البدع

و يتضمن الفصول التالية:

الفصل الأول: تعريف البدعة ـ أنواعها ـ أحكامها.

الفصل الثاني: ظهورالبدع في حياة المسلمين، و الأسباب التي أدت إليها.

الفصل الثالث: موقف الأمة الإسلامية من المبتدعة، و منهج أهل السنة و الجماعة في الرد عليهم.

الفصل الرابع: في الكلام على نماذج من البدع المعاصرة و هي:

1 ـ الاحتفال بالمولد النبوي.

2 ـ التبرك بالأماكن و الآثار و الأموات، و نحو ذلك.

3 ـ البدع في مجال العبادات و التقرب إلى الله.

الفصل الأول

تعريف البدعة، أنواعها و أحكامها

1 ـ تعريفها: البدعة في اللغة:

مأخوذة من البَـدْع، و هو الاخـتراع على غـير مثـال سـابق، و منه قوله تعالى: {بديع السماوات و الأرض }. [البقرة: 117.]

أي مخترعها على غـير مثـال سـابق، قوله تعـالى: {قل ما كنت بدعًا من الرسل }. [الأحقاف: 9.]

أي: ما كنت أول من جــاء بالرســالة من الله إلى العبــاد، بل تقدمني كثير من الرسل.

و يقال: ابتدع فلان بدعة، يعني: ابتدأ طريقة لم يسبق إليها.

و الابتداع على قسمين:

ابتداع في العادات كابتداع المخترعات الحديثة، و هـذا مبـاح؛ لأن الأصل في العادات: الإباحة.

و ابتداع في الدين، و هـذا مُحـرَّم؛ لأن الأصل فيه التوقيـف، قـال صـلى الله عليه وسـلم: " من أحـدث في أمرنا هـذا ما ليس منه فهو رد " [رواه البخاري ومسلم.]، وفي روايــة: " من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد". [في صحيح مسلم.]

2 ـ أنواع البدع:

البدعة في الدين نوعان:

النوع الأول: بدعة قولية اعتقادية، كمقالات الجهمية و المعتزلة و الرافضة، و سائر الفرق الضالة، و اعتقادهم.

النوع الثاني: بدعة في العبادات، كالتعبد لله بعبادة لم يشرعها، و هي أقسام:

القسم الأول: ما يكون في أصل العبادة: بـأن يحـدث عبـادة ليس لها أصل في الشرع، كأن يحـدث صـلاة غـير مشـروعة أو صـيامًا غير مشروع أصلًا، أو أعيادًا غير مشروعة كأعياد الموالد و غيرها.

القسم الثاني: ما يكون من الزيـادة في العبـادة المشـروعة، كما لو زاد ركعة خامسة في صلاة الظهر أو العصر مثلًا.

القسم الثالث: ما يكـون في صـفة أداء العبـادة المشـروعة؛ بـأن يؤديها على صفة غير مشروعة، و ذلك كـأداء الأذكـار المشـروعة بأصوات جماعية مُطربـة، و كالتشـديد على النفس في العبـادات إلى حد يخرج عن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

القسم الرابـع: ما يكـون بتخصـيص وقت للعبـادة المشـروعة؛ لم يخصصه الشرع كتخصيص يوم النصف من شـعبان و ليلته بصـيام و قيــام، فــإن أصل الصــيام و القيــام مشــروع، و لكن تخصيصه بوقت من الأوقات يحتاج إلى دليل.



3 ـ حكم البدعة في الدين بجميع أنواعها:
كل بدعة في الـدين فهي محرمة و ضـلال، لقوله صـلى الله عليه وسلم: " و إيـاكم و محـدثات الأمـور، فـإن كل محدثة بدعة و كل بدعة ضلالة " [رواه الترمـذي و قـال: حـديث حسن صـحيح.]، و قوله صلى الله عليه وسـلم: " من أحـدث في أمرنا هـذا ما ليس منه فهو رد" [متفق عليـه.]، وفي روايـة: " من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد". [رواه مسـلم.] فـدل الحـديثان على أن كل محدث في الدين فهو بدعة، و كل بدعة ضلالة مـردودة، و معـنى ذلك أن البدع في العبادات و الاعتقادات محرمة، و لكن التحـريم يتفاوت بحسب نوعية البدعة، فمنها ما هو كفر صراح، كـالطواف بالقبور تقربًا إلى أصحابها، و تقديم الذبائح و النـذور لهـا، و دعـاء أصحابها، و الاسـتغاثة بهم، و كـأقوال غلاة الجهمية و المعتزلـة. و منها ما هو من وسـائل الشـرك، كالبنـاء على القبـور و الصـلاة و الـدعاء عنـدها، و منها ما هو فسق اعتقـادي كبدعة الخـوارج و القدرية و المرجئة في أقـوالهم و اعتقـاداتهم المخالفة للأدلة الشـرعية، و منها ما هو معصـية كبدعة التبتل و الصـيام قائمًا في الشمس، و الخصاء بقصد قطع شهوة الجماع. [انظـر: الاعتصـام للشاطبي (2 / 37).]

تنبيه:
من قَسَّـمَ البدعة إلى بدعة حسـنة، و بدعة سـيئة؛ فهو مخطئ و مخالف لقوله صلى الله عليه وسلم: " فإن كل بدعة ضلالة " لأن الرسول صلى الله عليه وسلم حكم على البـدع كلها بأنها ضـلالة، و هذا يقـول: ليس كل بدعة ضـلالة؛ بل هنـاك بدعة حسـنة. قـال الحافـظُ ابنُ رجب في شـرح الأربعين: (فقوله صـلى الله عليه وسلم: " كل بدعة ضلالة " من جوامع الكلم؛ لا يخرج عنه شيء، و هو أصل عظيم من أصول الـدين، و هو شـبيه بقوله صـلى الله عليه وسـلم: " من أحـدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد " فكل من أحدث شيئًا و نسبَهُ إلى الـدين، و لم يكن له أصل من الـدين يرجع إليه فهو ضـلالة، و الـدين بـريء منـه، و سـواء في ذلك مسائل الاعتقـادات، أو الأعمـال أو الأقـوال الظـاهرة و الباطنـة) [جامع العلوم و الحكم صلى الله عليه وسلم 233.] انتهى.
و ليس لهـؤلاء حجة على أن هنـاك بدعة حسـنة، إلا قـول عمر رضي الله عنه في صلاة التراويح: (نعمت البدعة هذه).
و قالوا أيضًا: أنها أحدثت أشـياء لم يسـتنكرها السـلف، مثل جمع القرآن في كتاب واحد، و كتابة الحديث و تدوينه.



و الجواب عن ذلك أن هـذه الأمـور لها أصل في الشـرع، فليست مُحدثــة، و قــول عمــر: (نعمت البدعــة) يريــدُ البدعة اللُّغوية لا الشرعية، فما كان له أصل في الشـرع يُرجَـعُ إليـه، إذا قيـل: إنه بدعة، فهو بدعةٌ لغةً لا شرعًا؛ لأن البدعة شرعًا: ما ليس له أصل في الشرع. و جمع القـرآن في كتـاب واحد له أصل في الشـرع؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأمر بكتابة القرآن، لكن كان مكتوبًا متفرقًـا، فجمعة الصـحابة رضي الله عنهم في مصـحف و احد حفظًا له.

و التراويح قد صلاها النبي صلى الله عليه وسلم بأصـحابه ليـالي، و تخلَّفَ عنهم في الأخــير خشــية أن تفــرض عليهم، و اســتمر الصحابةُ رضي الله عنهم يصلونها أوزاعًا متفرقين في حياة النبي صـــلى الله عليه وســـلم و بعد وفاتـــه، إلى أن جمعهم عمر بن الخطـاب رضي الله عنه على إمـام واحد كما كـانوا خلف النـبي صلى الله عليه وسلم، و ليس هذا بدعة في الدين.

و كتابة الحديث أيضًـا لها أصل في الشـرع، فقد أمر النـبي صـلى الله عليه وسـلم بكتابة بعض الأحـاديث لبعض أصـحابه؛ لما طلب منه ذلك، و كان أبو هريرة رضي الله عنه يكتب الحديث في عهد النـبي صـلى الله عليه وسـلم، و كـان المحـذور من كتابته بصـفة عامة في عهــده: خشــية أن يختلط بــالقرآن ما ليس منــه، فلما تُوفي صلى الله عليه وسلم انتفى هـذا المحـذور؛ لأن القـرآن قد تكامــل، و ضــبط قبل وفاته صــلى الله عليه وســلم، فــدوَّنَ المسلمون الحـديثَ بعد ذلك حفظًا له من الضـياع، فجـزاهُمُ الله عن الإسلام و المسلمين خـيرًا؛ حيث حفظـوا كتـاب ربهم و سـنة نبيهم صلى الله عليه وسلم من الضياع و عبث العابثين.

الفصل الثاني

ظهور البدع في حياة المسلمين و الأسباب التي أدت إليها

1 ـ ظهور البدع في حياة المسلمين، وتحته مسألتان:

المسألة الأولى: وقت ظهور البدع:

قال شيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله [مجمـوع الفتـاوى (10 / 354).]: واعلم أن عامة البدع المتعلقة بـالعوم و العبـادات إنما وقع في الأمة في أواخر عهد الخلفــاء الراشــدين، كما أخــبر به النــبي صــلى الله عليه وســلم حيث قــال: " من يعش منكم، فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسـنتي و سـنة الخلفـاء الراشـدين المهــديين " [رواه أبو داود و الترمــذي و قــال: حــديث حسن صحيح.] و أول بدعة ظهرت: بدعةُ القدر، و بدعة الإرجاء، و بدعة التشيع و الخوارج، و لما حدثت الفرقة بعد مقتل عثمـان ظهـرت



بدعة الحرورية، ثم في أواخر عصر الصحابة، حدثت القدرية في آخر عصر ابن عمر و ابن عباس و جابر وأمثالهم من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ و حدثت المرجئة قريبًا من ذلك، و أما الجهمية فإنما حدثوا في أواخر عصر التابعين بعد موت عمر بن عبد العزيز، و قد روي أنه أنذر بهم، و كان ظهور جهم بخُراسان في خلافة هشام بن عبد الملك.

هذه البدع ظهرت في القرن الثاني، و الصحابةُ موجودون، و قد أنكروا على أهلها، ثم ظهرت بدعة الاعتزال، و حدثت الفتن بين المسلمين، و ظهر اختلاف الآراء و الميل إلى البدع و الأهواء، و ظهرت بدعة التصوف، و بدعة البناء على القبور بعد القرون المفضلة، و هكذا كلما تأخر الوقت زادت البدع و تنوعت.

المسألة الثانية: مكان ظهر البدع:

تختلف البلدان الإسلامية في ظهور البدع فيها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فإن الأمصار الكبار التي سكنها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، و خرج منها العلم و الإيمان خمسة: الحرمان، و العراقان، والشام، منها خرج القرآن و الحديث، و الفقه و العبادة، و ما يتبع ذلك من أمور الإسلام، و خرج من هذه الأمصار بدع أصولية، غير المدينة المنورة، فالكوفة خرج منها التشيع و الإرجاء، و انتشر بعد ذلك في غيرها، و البصر خرج مناه القدر و الاعتزال و النسك الفاسد، و انتشر بعد ذلك في غيرها، و الشام كان بها النصب و القدر، و أما التجهم فإنما ظهر في ناحية خراسان، و هو شر البدع.

و كان ظهور ابدع بحسب البعد عن الدار النبوية، فلما حدثت الفرقة بعد مقتل عثمان ظهرت بدعة الحرورية، و أما المدينة النبوية، فكانت سليمة من ظهور هذه البدع، وإن كان بها من هو مضمر لذلك، فكان عندهم مهانًا مذمومًا، إذ كان بها قوم من القدرية و غيرهم، و لكن كانوا مقهورين ذليلين، بخلاف التشيع و الإرجاء في الكوفة، و الاعتزال و بدع النساك بالبصرة، و النصب بالشام، فإنه كان ظاهرًا، و قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الدجَّالَ لا يدخلها، و لم يزل العلم و الإيمان ظاهرًا إلى زمن أصحاب مالك، و هم من أهل القرن الرابع). [مجموع الفتاوى (20 / 300 ـ 303).]

فأما العصور الثلاثة المفضلة فلم يكن فيها بالمدينة النبوية بدعة ظاهرة البتة، و لا خرج منها بدعة في أصول الدين البتة، كما خرج من سائر الأمصار.

2 ـ الأسباب التي أدت إلى ظهور البدع:

مما لا شك فيه أن الاعتصـام بالكتـاب والسـنة فيه منجـاة من الوقـوع في البـدع والضـلال، قـال تعـالى: {و أن هـذا صـراطي مسـتقيمًا فـاتبعوه ولا تتبعـوا السـبل فتفـرق بكم عن سـبيله }. [الأنعام: 153.]

و قد وضح ذلك النـبي صـلى الله عليه وسـلم فيما رواه ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قـال: خَـطَّ لنا رسـول الله صـلى الله عليه وسلم خطًا فقـال: " هـذا سـبيل الله " ثم خط خطوطًا عن يمينه، وعن شماله ثم قال: " وهـذه سـبل، على كل سـبيل منهها الشـيطان يـدعو إليه " ثم تلا: {و أن هـذا صـراطي مسـتقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سـبيله }. [رواه أحمد و ابن حبان والحاكم و غيرهم.]

فمن أعـرض عن الكتـاب والسـنة؛ تنازعته الطـرق المضـللة، و البدع المحدثة.

فالأسباب التي أدت إلى ظهور البـدع تتلخص في الأمـور التاليـة: الجهل بأحكام الـدين، اتبـاع الهـوى، التعصب للآراء و الأشـخاص، التشـبه بالكفـار و تقليـدهم، و نتنـاول هـذه الأسـباب بشـيء من التفصيل:

أ ـ الجهل بأحكام الدين:

كلما امتد الزمن، وبعد النـاس عن آثـار الرسـالة؛ قل العلم وفشا الجهل، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسـلم بقولـه: " من يعش منكم فسـيرى اختلافًا كثـيرًا " [من حـديث رواه أبو داود و الترمـذي و قـال: حـديث حسن صـحيح.]، وقولـه: " إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العبـاد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق علمًا اتخذ الناس رءوسًـا جهـالًا، فسـئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا ". [جامع بيان العلم و فضله لابن عبد البر (1 / 180).]

فلا يقـاوم البـدع إلا العلم والعلمـاء، فـإذا فقد العلم و العلمـاء أتيحت الفرصة للبدع أن تظهر و تنتشر، و لأهلها أن ينشطوا.

ب ـ اتباع الهوى:

من أعرض عن الكتاب و السنة اتبع هواه، كما قال تعالى:

{ فإن لم يسـتجيبوا لك فـاعلم أنما يبتعـون أهـواءهم و من أضل ممن اتبع هواه بغير هدي من الله }. [القصص: 50.]

وقال تعالى: {أفرءيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم و ختم على سـمععه وقلبه و جعل على بصـره غشـاوة فمن يهديه من بعد الله }. [الجاثية: 23.]

و البدع إنَّما هي نسيجُ الهوى المتَّبع.



جـ ـ التعصب للآراء و الرجال:

التعصب للآراء و الرجال يحول بين المرء واتباع الـدليل، و معرفة الحق، قال تعالى: {وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه ءاباءنا }. [البقرة: 170.]

و هذا هو الشأن في المتعصبين اليـوم، من بعض أتبـاع المـذاهب الصوفية و القبوريين، إذا دعوا إلى اتباع الكتاب و السنة، و نبذ ما هم عليه مما يخالفهما؛ احتجوا بمذاهبهم، و مشـائخهم و آبـائهم و أجدادهم.

د ـ التشبه بالكفار:

و هو من أشد ما يوقع في البدع، كما في حديث أبي واقد الليـثي قال: خرجنا مع رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم إلى حـنين، و نحن حـدثاء عهد بكفـر، و للمشـركين سـدرة يعكفـون عنـدها و ينوطـون بها أسـلحتهم، يقـال لهـا: ذات أنـواط، فمررنا بسـدرة فقلنـا: يا رسـول اللـه: اجعل لنا ذات أنـواط كما لهم ذات أنـوا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الله أكبر، إنها السنن ! قلتم ــ والـذي نفسي بيـده ــ كما قـالت بنو إسـرائيل لموسـى: {اجعل لنا إلها كما لهم ءالهة قـال إنكم قـوم تجهلـون (138)} [الأعـراف: 138.] لـتركبن سـنن من قبلكم ". [رواه الترمـذي و صححه.]

ففي هذا الحديث: أن التشبه بالكفار هو الذي حمل بني إسـرائيل أن يطلبوا هذا الطلب القبيح، و هو أن يجعل لهم آلهة يعبدونها، و هو الـذي حمل بعض أصـحاب محمد صـلى الله عليه وسـلم أن يسـألوه أن يجعل لهم شـجرة يتـبركون بها من دون اللـه، و هـذا نفس الواقع اليوم، فإن غالب الناس من المسلمين، قلدوا الكفار في عمل البـدع و الشـركيات، كأعيـاد الموالـد، و إقامة الأيـام و الأسـابيع لأعمـال مخصصـة، و الاحتفـال بالمناسـبات الدينية و الذكريات، و إقامة التماثيل، و النصب التذكاريـة، و إقامة المـآتم، و بدع الجنائز، و البناء على القبور، وغير ذلك.

الفصل الثالث

موقف الأمة الإسـلامية من المبتدعـة، و منهج أهل السـنة و الجماعة في الرد عليهم

1 ـ موقف أهل السنة و الجماعة من المبتدعة:

ما زال أهل السنة و الجماعة يردون على المبتدعة، و ينكرون عليهم بدعهم، و يمنعونهم من مزاولتها، و إليك نماذج من ذلك:

(أ) عن أم الدرداء قالت: (دخل علي أبو الدرداء مغضبًا، فقلت له: ما لك: فقال: و الله ما أعرف فيهم شيئًا من أمر محمد إلا أنهم يصلون جميعًا). [رواه البخاري.]

(ب) عن عمر بن يحيى قال: (سمعتُ أبي يحدث عن أبيه قال: كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة، فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد، فجاءنا أبو موسى الأشعري، فقال: أخرج عليكم أبو عبد الرحمن بعد ؟ فقلنا: لا، فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعًا، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني رأيت في المسجد آنفًا أمرًا أنكرتهُ، و لم أرَ ـ و الحمد لله ـ إلا خيرًا، قال: و ما هو ؟ قال: إن عشت فستراه، قال: رأيت في المسجد قومًا حلقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل، و في أيديهم حصى فيقول: كبروا مائة، فيكبرون مائة، فيقول: هللوا مائة، فيهللون مائة، فيقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة، قال: فماذا قلت لهم ؟ فقال: ما قلت لهم شيئًا انتظار رأيك، أو انتظار أمرك، قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم، و ضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم شيء ؟

ثم مضى و مضينا معه؛ حتى أتى حلقة من تلك الحلق، فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون ؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصى نعد به التكبير و التهليل و التسبيح و التحميد، قال: فعدوا سيئاتكم، فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، و يحكم يا أمة محمد، ما أسرع هلكتكم، هؤلاء أصحابه متوافرون، و هذه ثيابه لم تبل، و آنيته لم تُكسر، و الذي نفسي بيده: إنكم لعلى ملة هي أهدى من ملة محمد، أو مفتتحو باب ضلالة. قالوا: و الله يا أبا عبد الرحمن، ما أردنا إلا الخير، قال: و كم مريد للخير لن يصيبه ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا أن قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، و ايم الله لا أدري لعل أكثرهم منكم. ثم تولى عنهم. فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك يطاعنونا يوم النهروان مع الخوراج). [رواه الدارمي.]

(جـ) جاء رجل إلى الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ فقال: من أين أحرم ؟ فقال: من الميقات الذي وقت رسول الله صلى الله

عليه وسلم و أحرم منه، فقال الرجل: فإن أحرمت من أبعد منه، فقال مالك: لا أرى ذلك، فقال: ما تكره من ذلك، قال: أكره عليك الفتنة، قال: و أي فتنة في ازدياد الخير ؟ فقال مالك: فإن الله تعالى يقول: {فليحذر الذين يخالفون عن امره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم (63) }. [النور: 63.]
و أي فتنة أعظم من أنك خصصت بفضل لم يختص به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ! [ذكره أبو شامة في كتاب: الباعث على إنكار البدع و الحوادث نقلًا عن أبي بكر الخلال صلى الله عليه وسلم 14.]
هذا نموذج، و لا زال العلماء ينكرون على المبتدعة في كل عصر، و الحمد لله.
2 ـ منهج أهل السنة والجماعة في الرد على أهل البدع:
منهجهم في ذلك مبني على الكتاب و السنة، و هو المنهج المقنع المفحم، حيث يوردون شبه المبتدعة و ينقضونها، و يستدلون بالكتاب و السنة على وجوب التمسك بالسنن، و النهي عن البدع و المحدثات، و قد ألفوا المؤلفات الكثيرة في ذلك، و ردوا في كتب العقائد على الشيعة و الخوارج و الجهمية و المعتزلة و الأشاعرة، في مقالاتهم المبتدعة في أصول الإيمان و العقيدة، و ألفوا كتبًا خاصة في ذلك، كما ألف الإمام أحمد كتاب الرد على الجهمية، و ألف غيره من الأئمة في ذلك كعثمان بن سعيد الدارمي، و كما في كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، والشيخ محمد بن عبد الوهاب، و غيرهم، من الرد على تلك الفرق، و على القبورية و الصوفية، و أما الكتب الخاصة في الرد على أهل البدع، فهي كثيرة، منها على سبيل المثال من الكتب القديمة:
1 ـ كتاب الاعتصام للإمام الشاطبي.
2 ـ كتاب اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية، فقد استغرق الرد على المتبدعة جزءًا كبيرًا منه.
3 ـ كتاب إنكار الحوادث و البدع لابن وضاح.
4 ـ كتاب إنكار الحوادث و البدع للطرطوشي.
5 ـ كتاب الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة.
ومن الكتب العصرية:
1 ـ كتاب الإبداع في مضار الابتداع للشيخ على محفوظ.
2 ـ كتاب السنن و المبتدعات المتعلقة بالأذكار و الصلوات للشيخ محمد بن أحمد الشقيري الحوامدي.
3 ـ رسالة التحذير من البدع لشيخ عبد العزيز بن باز.



ولا يزالُ علماء المسلمين ـ والحمد لله ـ ينكرون البـدع و يـردون على المبتدعة من خلال الصـحف و المجلات والإذاعـات و خطب الجمع و النــدوات و المحاضــرات، مما له كبــير الأثر في توعية المسلمين، و القضاء على البدع و قمع المبتدعين.

الفصل الرابع

في بيان نماذج من البدع المعاصرة

وهي:

1 ـ الاحتفال بالمولد النبوي.
2 ـ التبرك بالأماكن و الآثار و الأموات و نحو ذلك.
3 ـ البدع في مجال العبادات و التقرب إلى الله.

البدع المعاصرة كثيرة؛ بحكم تأخر الزمن، و قلة العلم، و كثرة الدعاة إلى البدع و المخالفات، و سريان التشبه بالكفار في عاداتهم و طقوسهم، مصداقًا لقوله صلى الله عليه وسلم: " لتتبعن سنن من كان قبلكم ". [رواه الترمذي وصححه.]

1 ـ الاحتفال بمناسبة المولد النبوي:

و هو تشبه بالنصارى في عمل ما يسمى بالاحتفال بمولد المسيح، فيحتفل جهلة المسلمين، أو العلماء المضلون في ربيع الأول أو في غيره من كل سنة بمناسبة مولد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. فمنهم من يقيم هذا الاحتفال في المساجد، و منهم من يقيمه في البيوت، أو الأمكنة المعدة لذلك، و يحضر جموع كثيرة من دهماء الناس و عوامهم، يعملون ذلك تشبهًا بالنصارى في ابتداعهم الاحتفال بمولد المسيح، عليه السلام، و الغالبُ أن هذا الاحتفال علاوة على كونه بدعة، وتشبهًا بالنصارى، لا يخلو من وجود الشركيات و المنكرات، كإنشاد القصائد التي فيها الغلو في حق الرسول صلى الله عليه وسلم إلى درجة دعائه من دون الله، و الاستغاثة به، و قد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الغلو في مدحه فقال: " لا تطروني كما أطرت النصاى ابن مريم؛ إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله و رسوله " [رواه الشيخان.]. وقد يصحب هذا الاحتفال اختلاط بين الرجال والنساء و فساد الأخلاق و ظهور المسكرات و غير ذلك.

الإطراء معناه: الغلو في المدح، و ربما يعتقدون أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحضر احتفالاتهم، و من المنكرات التي تصاحب هذه الاحتفالات: الأناشيد الجماعية المنغمة و ضرب الطبول، و غير ذلك من عمل الأذكار الصوفية المبتدعة، و قد يكون فيه اختلاط بين الرجال والنساء، مما يسبب الفتنة، ويجر إلى الوقوع في الفواحش، وحتى لو خلا هذا الاحتفال من هذه المحاذير، و اقتصر على الاجتماع و تناول الطعام، و إظهار الفرح ـ كما يقولون ـ؛ فإنه بدعة محدثة (و كل محدثة بدعة، و كل بدعة ضلالة)، و أيضًا هو وسيلة إلى أن يتطور، و يحصل فيه ما يحصل في الاحتفالات الأخرى من المنكرات.



و قلنــا: إنه بدعــة؛ لأنه لا أصل له في الكتــاب و الســنة و عمل الســلف الصــالح و القــرون المفضــلة، و إنما حــدث متــأخرًا بعد القرن الرابع الهجري، أحدثه الفاطميون الشـيعة، قـال الإمـام أبو حفص تاج الـدين الفاكهـاني ــ رحمه الله ــ: (أما بعـد: فقد تكـرر ســؤال جماعة من المبــاركين عن الاجتمــاع الــذي يعمله بعض النـاس في شـهر ربيع الأول، و يسـمونه المولـد، هل له أصل في الـدين، و قصـدوا الجـواب عن ذلك مبينًـا، و الإيضـاح عنه معينًـا، فقلت ـ و بالله التوفيق ـ:

لا أعلم لهذا المولد أصلاُ في كتاب و لا سـنة، و لا ينقل عمله عن أحد من علماء الأمة، الـذين هم القـدوة في الـدين، المتمسـكون بآثـار المتقـدمين، بل هو بدعة أحـدثها البـاطلون، و شـهوة نفس اغتنى بها الأكالون). [رسالة المورد في عمل المولد.]

و قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (و كذلك ما يحدثه بعض الناس، إما مضاهاة للنصـارى في ميلاد عيسى عليه السـلام، وإما محبة للنـبي صـلى الله عليه وسـلم وتعظيمًـا... من اتخـاذ مولد النبي صلى الله عليه وسلم عيدًا، و مع اختلاف الناس في مولده، فإن هذا لم يفعله السلف، و لو كان هذا خـيرًا محضًـا، أو راجحًـا، لكان السلف ـ رضي الله عنهم ت أحق به منا، فـإنهم كـانوا اشد محبة للنـبي صـلى الله عليه وسـلم و تعظيمًا له منـا، و هم على الخير أحرص، و إنما كـان محبته و تعظيمه في متابعته و طاعتـه، و اتباع امـره وإحيـاء سـنته باطنًا و ظـاهرًا، و نشر ما بعث بـه، و الجهــاد على ذلك بــالقلب و اليد واللســان، فــإن هــذه طريقة الســابقين الأولين من المهــاجرين و الأنصــار و الــذين اتبعــوهم بإحسان) [اقتضاء الصراط المستقيم (2 / 615) بتحقيق الدكتور ناصر العقل.)... انهى ببعض اختصار.

و قد ألف في إنكار هذه البدعة كتب و رسائل قديمة و حديثــة، و هو علاوة على كونه بدعة و تشــــــبهًا، فإنه يجر إلى إقامة موالد أخــرى كموالد الأوليـاء و المشـائخ و الزعمـاء، فيفتح أبـواب شر كثيرة.

2 ـ التبرك بالأماكن و الآثار و الأشخاص أحياء و أمواتًا:

من البـدع المحدثـة: التـبرك بـالمخلوقين، و هو لـون من ألـوان الوثنية، و شبكة يصطاد بها المرتزقة أموال السذج من النـاس، و التبرك: طلب البركة و هي: ثبوت الخـير في الشـيء و زيادتـه، و طلب ثبــوت الخــير و زيادته إنما يكــونُ ممن يملك ذلك و يقــدر عليــه، و هو الله ســبحانه، فهو الــذي يــنزل البركة و يثبتهــا، أما المخلوق فإنه لا يقدر على منح البركة و إيجادها، و لا على إبقائها

و تثبيتها، فالتبرك بالأماكن و الآثار و الأشخاص ـ أحياء و أمواتًا ـ لا يجوز؛ لأنه إما شرك، إن اعتقد أن ذلك الشيء يمنح البركة، أو وسيلة إلى الشرك إن اعتقد أن زيارته و ملامسته و التمسح به، سبب لحصولها من الله.

و أما ما كان الصحابة يفعلونه من التبرك بشعر النبي صلى الله عليه وسلم و ريقه و ما انفصل من جسمه صلى الله عليه وسلم، خاصة كما تقدم [في صفحة 183ـ]؛ فذلك خاص به صلى الله عليه وسلم و لم يكن الصحابة يتبركون بحجرته و قبره بعد موته، و لا كانوا يقصدون الأمكان التي صلى فيها أو جلس فيها؛ ليتبركوا بها، و كذلك مقامات الأولياء من باب أولى، و لم يكونوا يتبركون بالأشخاص الصالحين، كأبي بكر و عمر و غيرهما من أفاضل الصحابة، لا في الحاية و لا بعد الموت، و لم يكونوا يذهبون إلى غار حراء ليصلوا فيه أو يدعوا، و لم يكونوا يذهبون إلى الطور الذي كلم الله عليه موسى ليصلوا فيه و يدعوا، أو إلى غير هذه الأمكنة منن الجبال التي يقال إن فها مقامات الأنبياء أو غيرهم، و لا إلى مشهد مبني على أثر نبي من الأنبياء.

وأيضًا فإن المكان الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي فيه بالمدينة النبوية دائمًا لم يكن أحد من السلف يستلمه و لا يقبله، و لا موضع الذي صلى فيه بمكة و غيرها، فإذا كان الموضع الذي كان يطؤه صلى الله عليه وسلم بقدميه الكريمتين، ويصلي عليه، لم يشرع لأمته التمسح به و لا تقبيله، فكيف بما يقال إن غيره صلى فيه أو نام عليه ؟ فتقبيل شيء من ذلك و التمسح به قد علم العلماء بالاضطرار من دين الإسلام: أن هذا ليس من شريعته صلى الله عليه وسلم. [انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (2 / 795 ـ 802) تحقيق الدكتور ناصر العقل.]

3 ـ البدع في مجال العبادات و التقرب إلى الله:

البدع التي أحدثت في مجال العبادات في هذا الزمان كثيرة، و الأصل في العبادات التوقيف، فلا يشرع شيء منها إلا بدليل، و ما لم يدل عليه دليل فهو بدعة؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: " من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد ". [رواه مسلم.]

و العبادات التي تمارس الآن و لا دليل عليها كثيرة جدًا، منها:

الجهر بالنية للصلاة: بأن يقول: نويت أن أصلي لله كذا و كذا، و هذه بدعة؛ لأنه ليس من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، و لأن الله تعالى يقول: {قل أتعلمون الله بدينكم و الله يعلم ما في السماوات و ما في الأرض و الله بكل شيء عليم (16)ـ }. [الحجرات: 16.]

و النية محلها القلب، فهي عمل قلبي لا يعمل لساني.
و منها: الذكر الجماعي بعد الصلاة، لأن المشروع أن كل شـخص يقول الذكر الوارد منفردًا.
و منهـا: طلب قـراءة الفاتحة في المناسـبات، و بعد الـدعاء، و للاموات.
و منها: إقامة المآتم على الأمـوات، و صـناعة الأطعمة واسـتئجار المقــرئين، يزعمــون أن ذلك من بــاب العــزاء، أو أن ذلك ينفع الميت، و كل ذلك بدع لا أصل لهـا، و آصـار و أغلال ما أنـزل الله بها من سلطان.
و منها: الاحتفال بالمناسبات الدينية، كمناسبة الإسراء و المعراج، و مناسبة الهجرية النبوية، و هذا الاحتفال بتلك المناسبات لا اصل له في الشرع.
و من ذلك: ما ييفعل في شهر رجب، و ما يفعل فيه من العبادات الخاصة به، كالتطوع بالصلاة و الصيام فيه خاصة، فإنه لا ميزة له على غيره من الشـهور، لا في الصـيام و الصـلاة و الـذبح للنسك فيه، و لا غير ذلك.
و من ذلك: الأذكار الصـوفية بأنواعهـا، كلها بـدع و محـدثات، لأنها مخالفة للأذكار المشروعة في صيغها و هيئاتها و أوقاتها.
و من ذلك: تخصيص ليلة النصف من شعبان بقيام، و يوم النصف من شعبان بصيام، فإنه لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسـلم في ذلك شيء خاص به.
و من ذلك: البناء على القبـور، و اتخاذها مسـاجد، و زيارتها لأجل التبرك بها، و التوسل بالموتى، و غير ذلك من الأغراض الشركية، و زيارة النسـاء لهـا؛ مع أن الرسـول صـلى الله عليه وسـلم لعن زوارات القبور، و المتخذين عليها المساجد و السرج.
و ختامًا نقول: إن البدع بريد الكفر، و ههي زيادة دين لم يشـرعه اللهه ولا رسوله، و البدعة شر من المعصية الكبيرة، و الشـيطان يفـرح بها أكـثر مما يفـرح بالمعاصي الكبـيرة؛ لأن العاصي يفعل المعصـية و هو يعلم أنها معصـية فيتـوب منهـا، و المبتـدع يفعل البدعة يعتقدها دينًا يتقـرب به إلى اللـه، فلا يتـوب منهـا، و البـدع تقضي على السـنن، و تكـره إلى أصـحابها فعل السـنن و أهل السنة.
و البدعة تباعد عن اللـه، و تـوجب غضـبه و عقابـه، و تسـبب زيغ القلوب و فسادها.
ما يعامل به المبتدعة:



تحرم زيارة المبتدع و مجالسته إلا على وجه النصيحة له و الإنكار عليه؛ لأن مخالطته تؤثر على مخالطه شرًا، و تنشر عداوته إلى غيره، ويجب التحذير منهم، و من شرهم، إذا لم يكن الأخذ على أيديهم، و منعهم من مزاولة البدع، و إلا فإنه يجب على علماء المسلمين وولاة أمورهم منع البدع، و الأخذ على أيدي المبتدعة، و ردعهم عن شرهم؛ لأن خطرهم على الإسلام شديد، ثم إنه يجب أن يعلم أن دول الكفر تشجع المبتدعة على نشر بدعتهم، و تساعدهم على ذلك بشتى الطرق؛ لأن في ذلك القضاء على الإسلام، و تشويه صورته.

نسأل الله عز وجل أن ينصر دينه، ويعلي كلمته، ويخذل أعداءه، و صلى الله و سلم على نبينا محمد و آله و صحبه.